عمرو المنوفي

سر الحانوتي

رواية

ن للنشر والتوزيع

الناس من هول الحياة..
موتى على قيد الحياة !

لزوم ما يلزم للشاعر نجيب سرور

مهنتي

أن تكون مهنتك التعامل مع الموتى، هي دعاية ليست جيدة لك أو لأي فرد أخر من أفراد أسرتك.

كما أنها لن تكون السبيل المريح لتحظى بحياة حقيقية، أو بفتاة جميلة، تمنحك قلبها، وتقطع ليلها في الهمس إلى القمر عن هيامها بك.

أو لتحظى بصديق حقيقي لن يتشائم منك، أو يشمئز من أن يتناول في منزلك شطيرة أو كوب شاي، دون أن يتخيل أن تلك اليد التي أعدت الطعام والشراب، كانت تغسل الموتى وتكفنهم.

الكل ينفر من المتعاملين في هذه المهنة، وكأن الموت التصق بأيديهم، ولا يفرزون إلا عرقًا له رائحة الأموات.

والجميع عندهم حق في هذه النقطة، فبعض الأشياء تظل إلى الأبد صعبة في التقبل أو التجاوز مهما حاولنا تجميلها.

ولكنها مهنتنا، وقد تربينا من رزقها، وشابت رؤوسنا من هول ما نرى ونكابد فيها.

فالتعامل مع الموتى ليس عملية بسيطة أبدًا هناك عشرات القصص المخيفة والغريبة والعجيبة والمريبة، مررت بها، وجميعها تدور في قريتي، في عالمي الصغير.

قريتـي نفسـها، لازمهـا نفـس النحـس الـذي لازم عائلتـي باتخاذهـم مثـل هـذه المهنـة النبيلـة، أو ربـما نحـن مـن جلبنـا لهـا النحـس لا أعـرف!

تلك الأمور لا يمكن تحديدها بدقة.

فقريتي العجوز تبدو كمغناطيس هائل يجذب الكوارث والخوارق، وكل الأشياء الـ «فوقطبيعية» غير المتوقعة.

أنا عمكم يزيد الحانوتي .

واليـوم أحكـي لكـم بعضًـا مـن هـذه القصـص التـي تفـوح برائحـة الجثـث و المـوت والقبوروالغرائـب.

وقصـصي مختلفـة تمامًـا عـما قرأتمـوه مـن قبـل، أنـا أيضـا قـاريء مخضرم مثلكـم، وأعـرف مـا أحدثكـم عنـه..

فهل أنتم مستعدون لخوض الرحلة ؟.

أقرأت يوما في الحكايات القديمة،
عن غادة حسناء في أنياب غول؟!
أرأيت يوما ضفدعة
مابين فكي أفعوان
من هنا بدء الحكاية
يا قريتي يا عالمي..
يا عالمي.. يا قريتي ..!!

لزوم ما يلزم، للشاعر نجيب سرور

في القبر

(1)

الـصراخ في الخلفيـة يوحـي بمـدى لوعـة الفـراق، وصـوت البـكاء والنحيـب يؤكـدان مـدى فداحـة الفقـد عـلى روح وأعصـاب أهـل الفقيـد الراحـل، وأحبائـه.

الجميع غارقين في الحـزن، كسـفن جامحـة عصفـت بهـا ريـاح وأمـواج الحيـاة والمفاجـأة.

كلمات المواساة لا مكان لها هنا.

القلـوب منفطـرة، والنظـرات هلعـة تائهـة، وكأن الجميـع غرقـى، ويحتاجـون للإنقـاذ.

العيـون تتحـدث، والشـفاه عاجـزة إلا عـن الارتجـاف، وعـين حـال كل منهـم تقـول: لا داعـي للحديـث، فقـط فلتشـاركني الحـزن بـكل كيانـك، ولا مانـع مـن بعـض الـصراخ كواجـب مقـدس، ولاسـيما ذكـر محاسـن الفقيـد، الـذي ذهـب دون أن يـدرك أنـه كان يحظـى بهـا.

الملابس سوداء.

والوجوه سوداء.

والقلوب لطخها نفس السواد.

أتقدم عبر ممر المنزل الداخلي المفضي إلى الصالة، والذي تم إخلائه على عجل من جحافل النساء المتشحات بالسواد بصعوبة شديدة، وكأن كلٌ منهن قد التصقت بالأرض، كي أمر مع شقيقي عبد الهادي، لأعبر داخل المنزل الذي يصدح فيه صوت بعض المتمرسين في الأمر من أقارب الفقيد الراحل:

- « فلتتوقفوا عن الصراخ؛ فبه يتعذب الميت، ادعوا له بالرحمة والمغفرة».

صوت أخر :

- «فلتخرسوا هؤلاء الندابات، إنهن بذلك يمزقن وصية أبي، اللعنة على كل النساء بل ألف لعنة أيضًا».

الأعصاب مشدودة، الأرواح قد بلغت الحلقوم.

- «وحدوه».

تنطلق من بين شفتي شقيقي عبد الهادي قوية عميقة، فترد عليه إحدى النساء بصرخة بينما يردد الرجال بصوت مليء بالخشوع:

- "لا إله إلا الله".

يكرر عبد الهادي كلمته، فأتذكر تلك القصيدة القديمة، للشاعر الكفيف، والوحيد ربما الذي كتب للحانوتي قصيدة، وهي نقطة تضاف لرصيده من الشعر، وهذا ما يجعلني أحترمه أكثر.

(وحدوه..وحدوه.

هما دول الكلمتين إللي الحانوتي يخش بيهم عالبيوت..

كل ما واحد يموت..

قلبه كان أول زباينه، يوم ما خلى الموت في عيشته أكل عيش..

الحانوتي حد بيدخل يوماتي إيديه في قلب الموت عشان يقدر يعيش..

مهمى دققت في ملامحه، مش هاتلقى حزن فاقع، مش هاتلقى فرحة فاقعة..

كل أيامه يادوبك، تشبه المية اللي في كفوفه، لا هي سخنة قوي، ولا هيَ ساقعة..

والكلام يخرج قليل، كل كلمة خارجة منه عايزة زقة..

آه، عملنا، آه، هانعمل، لسا حبة، لأ لأ..

يا مسهل..

يا ابني شهل..

لجل نخلص مالأمانة..)

أدخل الغرفة التي تحتوي على الجسد الهامد الفاقد للحياة، والذي تم تغطيته ببطانية ثقيلة، مع تشغيل بعض المراوح حول الجسد، كي يقتل الرائحة الكريهة التي بدأت تنبعث منه .

دلاء الماء، والطاولة الكبيرة المصنوعة من الألومنيوم، القطن والشاش والكفن، كلها متوفرة، هذا بيت قد رأى من الأحزان ما جعله مستعدًا دائما بكل المهمات اللوجستية الخاصة بذلك الحدث المقبض.

صوت القرآن الشجي يرج أنحاء المكان:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةًفَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي).

ومـع صـوت الـصراخ والنحيـب، يوقـع صـوت القـاريء في القلـب الشـجن.

نـوارة تظهـر مـن قلـب العـدم مخترقـة الجـدار المجـاور لبـاب الغرفـة المغلـق لتقـف في الركـن البعيـد، وعـلى وجههـا إبتسـامتها المعتـادة.

بالطبـع لا يمكـن أن أبادلهـا الإبتسـام في موقـف مماثـل لمـا نحـن فيـه، فأكتفـي بهـز رأسي لهـا، فتهـز رأسـها محييـة هـي الأخـرى دون أن تتلاشـى ابتسـامتها.

ينهمـك شـقيقي عبـد الهـادي الأكثـر تمرسًـا في إعـداد مـا سـنحتاجه مـن أجـل غُسـل الميـت ، فتشـير نـوارة إلى أعـلى لتخـبرني أنـه قـد ذهـب!

فأهـز رأسي مـرة أخـرى مؤكـدًا، وأنـا أنظـر لوجـه شـقيقي عبـد الهـادي المتجهـم، والـذي بـدأ في تعريـة الجثـة التـي فقـدت كل مـؤشرات الحيـاة، ونـزع ملابسـها ، لبـدأ المراسـم .

لقد ذهب بالتأكيد يانوارة.

ذلك الرجل المسجى على الفراش دون حركة.

عيناه المغلقتان.

جسـده الـذي أصبـح مشـاعاً للغربـاء، كلهـا أدلـة لا تحتـاج منـك لتأكيـد، بأنـه قدذهـب ولـن يعود.

بعـد نـزع ملابـس الميـت قـام شـقيقي عبدالهـادي بسـتر عورتـه، ثـم رفـع رأسـه كوضعيـة الجلـوس، وضغـط عـلى بطنـه لإخـراج الفضـلات والأذي، ثـم بدأنـا في صـب الكثـير مـن المـاء عـلى جثـمان الميـت.

وبعـد امتـلاء الإنـاء، دفعنـا بـه لأهـل الميـت لإفراغـه ممـا فيـه.. وبعدهـا

قمنـا بتنجيـة الميـت، وهـو غسـل أعضـاءه الخاصـة دون كشـفها، ثـم سـمى عبـد الهـادي، وغسـل الأعضـاء الأخـرى التـي كان يقـوم بوضوئهـا اسـتعدادًا للصـلاة.

ليتوضـأ وضوئـه الأخـير الـذي لا تتبعـه صـلاة، مـع حـرص شـقيقي عـلى عـدم دخـول المـاء لأنـف وفـم الميـت.

ثـم قـام باسـتخدام قطعـة مـن القـماش الرطـب، بغسـل أسـنانه ومنخاريـه.

أنـا دوري هنـا مسـاعد لا أكثـر، لأننـي أقـوم بـأداء هـذه المهمـة الثقيلـة عـلى مضـض، لم أؤمـن بعـد بأنهـا مهنتـي، ولكـن الظـروف قـد حكمـت.

بعدهـا غسـلنا معًـا الـرأس واللحيـة برغـوة السـدر ثـم باقـي الجسـم حسـب الترتيـب المعتـاد:

الجانـب الأيمـن، فالأيـسر بالتـوالي لثـلاث مـرات، ثـم ضغطـت عـلى بطنـه لإخـراج مـا تبقـى مـن الفضـلات والأذى، والـذي اسـتقبلناه في نفـس الوعـاء المصنـوع مـن الألومنيـوم.

وفور الإنتهاء قمنا بتغسيله كاملًا سبع مرات لدقة الغُسل والطهارة.

وفي أحيـان كثيرة نسـتخدم القطـن لسـد أماكـن الآذى لـو لم يتوقـف عـن الخـروج، وقـد نضطـر بعدهـا لتطهـير المكان وإعـادة الوضـوء، وهـو مـا لم نحتاجـه هـذه المـرة، فـلا يبـدو أن الفقيـد كان مـن النـوع النهـم للطعـام.

غسـلنا الجسـد بالكافـور كـما أتـى في الحديـث الشريـف، وهـو مـادة بـاردة تطـرد رائحتهـا الحـشرات.

الكفـن ثـلاث قطـع، تُبسـط فـوق بعضهـا، قبـل أن تتطيـب بالحنـوط

الـذي يوضـع فيـما بينهـا، وهـو عطـر خـاص بالموتـى، بعدهـا يتـم وضـع القطـن عـلى عـورتي الميـت لتـلافي الروائـح الكريهـة.

يوضـع الحنـوط عـلى منافـذ وجـه الميـت، عينيـه وأذنيـه ومنخريـه وشـفتيه ومواضـع السـجود، والأفضـل تطييـب جسـد الميـت كلـه، وهـو مـا نفعلـه الآن، فأهـل الميـت لم يقـصروا في جلـب كميـة كافيـة منـه لفقيدهـم.

يقـوم عبـد الهـادي بفـرد طـرف اللفافـة الأولى عـلى الجانـب الأيمـن ثـم الأيـسر، وكذلـك مـع اللفافتـان الثانيـة والثالثـة، وبعدهـا قـام بسـحب قطعـة القـماش التـي تغطـي عورتـه، ثـم قـام بعقـد العقـد السـبعة لتثبيـت الكفـن مـن الـرأس وحتـى قدميـه.

الآن صـار الميـت جاهـزًا للدفـن حسـب الأصـول الشرعيـة، والآن نسـبق المشـيعين إلى القـبر الـذي قمنـا بفتحـه، وتهيئتـه في وقـت سـابق، لاسـتقبال الجثـمان.

دائما ما نفعلها كي لا نستمع لصريخ أهله، عند خروجه من المنزل.

تلك اللحظة القاصمة التي تزلزل أشجع القلوب.

وفي عقـلي كنـت أتسـاءل: هـل مـازال الذبـاب الأزرق الغريـب هنـاك، يـمارس أفعالـه الجنونيـة؟! لقـد حـول مهمـة إعدادنـا القـبر إلى جحيـم.

أقيمـت صـلاة الجنـازة، في تلـك المنطقيـة الخاليـة أمـام الجمعيـة الزراعيـة الموجـودة بجـوار شريـط السـكة الحديديـة، الـذي يفصـل بينهـا وبـين المقابـر، وهاهـو النعـش يتقـدم وسـط أعـداد لا حـصر لهـا مـن المشـيعين، الدليـل الأكـبر عـلى شـعبية الميـت وحـب أهـل القريـة لـه.

وتـأتي أهميـة عـدد المصليـين مـن الأحاديـث الشريفـة، التـي أبـرزت

أهمية الأمر.. فكلما زاد عدد المصليين على الميت، كلما صارت شفاعتهم أعظم، وأكثر قبولا من المولى عز وجل.

......

القبر مفتوح..

.....

بوابة مخيفة لعالم أخر لا نعرف عنه الكثير.

ورغم ضوء النهار، وحرارة الصيف اللاهبة، فقلبه مظلم وبارد..و..

وينتظر.

نوارة ببنيتها الهزيلة، وقدميها النحيلتين، تجلس على عتبة القبر تحرك قدميها في بهجة، وكأنها ليست في جنازة، وهو شيء معتاد منها.

أتجاهلها وأتناول الجسد الملفوف في كفنه، أنا وشقيقي عبد الهادي من المشيعين المتطوعين بالأمر.

الجسد أثقل من المعتاد، وكأن الروح هي من كانت تمنحه الخفة.

الذباب الأزرق كثيف جدًا بشكل مزعج.. وكأنما القبر قطعة حلوى كبيرة.. تجذبه دون هوادة، وهذا يحتاج لتفسير حتمًا.. ولكن لا وقت لهذا الآن.

نزج بالجسد المكفن إلى داخل القبر الذي تم إعادة ترتيبه من قبل، فتم جمع عظام المتوفين الأقدم ودفنها، وإزاحة جسد شقيقه الذي سبقه إلى العالم الأخر قبل عدة أيام، والذي يعيق الدفن، والذي جعلت جثته المتعفنة رائحة المكان لا تطاق لمن أعتادها، ومن لم يعتدها.

كل شيء مريب، ومزعج، وبلا تفسير.

الحر، والرائحة، وذباب المقابر بلونه الأزرق المميز، والملقب بـ (العنتر) والذي كان ينجذب للقبر بشكل مستمر، قبل أن يتساقط ميتًا أمامنا بشكل غامض.

لذا كان علينا أن ننهي الأمر سريعًا، لتنتهي معاناة الجميع.

فالذباب كان يتساقط على الرؤوس والوجوه، وأحد المشيعين سيئي الحظ دخل بعضه في عينيه وفمه، وكأن هناك من رش المكان بمبيد قوي له خصائص غير معتادة، فجذب الذباب للقبر قبل أن يفتك به.

أثار سلوك الذباب الغريب أفكاري، وكل ما قرأته عنه، ولكني تجاهلته مؤقتًا، على الرغم من عدم قناعتي أن ذباب مثله تعود على لحوم الجثث المتعفنة، قد يلقى حتفه من رائحة جثة شقيق المتوفى الزاعقة، وهو التفسير الوحيد الذي حضر إلى عقلي وقتها، ولم أقتنع به.

وبرغم الرائحة والذباب الذي أصيب بلوثة غير مبررة، يدخل شقيقي عبد الهادي بنصف جذعه إلى القبر ليفك العقد السبعة التي تربط أجزاء الكفن كما هو معتاد.

يغيب للحظات، ثم يفاجئني صوته بشهقة عالية، وصرخة مكتومة..

ألمح جسده يهتز للحظة، وكأنما أصابه تيار كهربي مفاجئ، أو لدغه عقرب، قبل أن يخرج جسده بسرعة من القبر، وسط نظرات المشيعين المتسائلة، وهو يضم يده إلى صدره في قوة، وكأنه يعاني من ألم حاد، ويخبرني أن أكمل المراسم، لأن خطب ما أصاب يده متجاهلا دهشة المشيعيين.

الحـوادث تقـع في مهنتنـا ككل مهنـة، ولكـن شـعور بغيـض نمـى في أعماقـي.

إن الأمر ليس طبيعيا أبدًا..

هناك شيء مريب يدور حول القبر أو حول صاحبه.

أتـدارك الأمـر بسرعـة، ألـف الكوفيـة حـول وجهـي، لأتجنـب الرائحـة والذبـاب، كـما إنني أكـره أن يدخـل تـراب المقابـر في أنفـي، وأكمـل مهمـة شـقيقي، بقلـب منقبـض.

أنـا أخبرتكـم مـن قبـل أننـي لا أعتبرهـا مهنتـي؛ وأقـوم بهـا عـلى مضـض، وإن كنـت أجيدهـا كـما أجيـد التنفـس.. فـأبي رحمـه الله لم يكـن يمـزح أو يسـمح بالتهـاون مـع أيٍ مـن أبنائـه في ميراثـه العائـلي.

لـذا أدخـل بـرأسي الملفـوف وسـط الظـلام غـير الدامـس، أهـش أسراب الذبـاب دون جـدوى، أو فاعليـة.

هنـاك ثقـب أعـلى المقـبرة يتسـلل منـه بعـض الضـوء، ممـا يتيـح لي رؤيـة جيـدة إلى حـد مـا. والغريـب أن الذبـاب كان يتسرب منـه إلى الداخـل قبـل أن يخـرج مـن بـاب المقـبرة ليلقـى مصرعـه.

هذا الثقب يجب أن يُغلق..

أضـع الأمـر كملحوظـة في رأسي، ثـم أفكـر أن المقـبرة بكاملهـا تحتـاج لبعـض الصيانـة والترميـم، وهـو بـاب أخـر للـرزق يمتهنـه شـقيقي عبـد الهـادي.

أُنهي فك العقد،

أضـع بعـض الـتراب فـوق الجسـد المكفـن - فقبـور القريـة تـم بنائهـا

فـوق الأرض وليـس بباطنهـا - ليكـون دفنـا شرعيًـا، وأخـرج رأسي سريعًـا..

أسـد البـاب ببعـض قوالـب القرميـد الأحمـر، وأغلـق بابـه المعـدني بالقفـل، ليغـادر أهـل الميـت.

أقـوم وحـدي بتلقـين الميـت الشـهادتين، وبـما يجـب عليـه قولـه عنـد سـؤال الملكـين لـه، وعقـلي يفكـر في مـا أصـاب شـقيقي عبـد الهـادي!

ثـم هـداني عقـلي إلى أنـه قـد أصـاب يـده بشـكل مـا، ربـما صدمـت ببـاب القـبر المعـدني، أو بحافتـه القاسـية، مـع حركـة الذبـاب الأزرق الجنونيـة.

لا داعي لإطلاق الخيال في أمر بسيط.

لا شيء يدعو للقلق إذن.

ميت أخر يعبر إلى العالم الغامض، ونحن نسهل المهمة على أهله.

يوم معتاد.

لا شيء مختلفٌ فيـه إلا سـلوك الذبـاب العجيـب، وإصابـة يـد شـقيقي عبـد الهـادي..

وكما قلت الحوادث تقع..

وأنتهى اليوم ككل مرة، بدخول نوارة إلى القبر.

* * *

(2)

انتظرت عودة نوارة في المساء، ولكنها على غير عادتها لم تظهر حتى غروب الشمس، فشعرت بقلق غريزي عليها، خصوصا مع عدم معرفتي التامة لحقيقتها، وقدراتها، وما تمارسه بشكل دائم داخل المقابر.

وبرغم جهلي الكبير بأسرارها، لا أعتقد أن هناك شيء في عالمنا هذا قادر على إيذائها.

تأملت الغرفة الخالية من حولي، فشعرت ببعض الوحشة، ورددت بيني وبين نفسي مطمئنًا:

- « نوارة مهما غابت، دائما تعود».

ثم فكرت أن نوارة لا خوف عليها، وأن ما يحدث لي هو نوع غريب من التعلق بعد أن أعتدت وجودها حولي، القلق كله على شقيقي عبد الهادي، الذي لم يظهر هو الآخر منذ غادر الدفنة متألمًا.

وهو أمر لم يحدث من قبل، وليس من عاداته، فهو فور إتمامه مراسم الوداع النهائية لأي فقيد، يحرص على الحصول على دش سريع بارد، يغسل به عن نفسه آثار الموت، كما أعتاد أن يقول.

فأين ذهب ياترى؟.

لم أعثر في عقلي على إجابة مريحة، ولم أرغب في أن أقلق أمي أو أيا من شقيقاتي، بسؤالهن عليه، فجلست في غرفتي وحيدًا، أقطع الوقت الثقيل في قراءة رواية شائقة ليوسف السباعي حملت عنوانًا غريبًا ينتمي لأجوائنا المظلمة (نائب عزرائيل).

لم تكن رواية عادية بأي حال من الأحوال، كانت ذات أفكار صادمة، ومزعجة حتى لشخص مثلي متفتح العقل، فما بالكم لو قرأها شقيقي عبد الهادي.

أعتقد أن ردة فعله التلقائية أن يقوم بحرقها، وهو يخبرني بكل غضب، وبعيناه الضيقتين، أنني وهذا الكاتب الجاحد الذي أقرأ له، سنحترق في نار جهنم. هو على تطاوله على ملك الموت والمقدسات، وأنا على أقتنائي هذا العمل المدنس.

ولكنني كنت غارقًا في أحداث الرواية الشائقة، أتتبع قلم الكاتب الجريء الذي لم يخلُ من سخرية لاذعة، وروحي تحلق في عالم أخر، من الكلمات والأفكار والأحداث؛ فهكذا فقط أغسل روحي من آثار الموت والحزن، الذي يغرق عالمنا بسبب مهنتنا غير المعتادة.

وبعيدًا عن شطط الرواية وجنونها، كانت فكرة أن أمتلك قدرات ملك الموت ولو لساعة واحدة مثيرة لخيالي بشكل كبير.

إن عملنا يأتي بعد أن ينهي ملك الموت مهمته، فماذا عن عمله هو؟!.

عن قدرته الفذة في نزع سر الأسرار، وقدس الأقداس.

عـن قدرتـه، في نـزع الـروح، وإنهـاء الحيـاة، وتحويـل الكائنـات الحيـة، لمجـرد تماثيـل مـن اللحـم البـارد، لا قـدرة لهـا عـلى فعـل شيء.

استـغرقتني الفكـرة طويـلًا، ودارت معـي، حتـى إننـي فكـرت كثـيرًا في الطريقـة العكسـية لعملهـا.

ماذا لو امتلكت القدرة على إعادة الأرواح للأجساد؟!

هــل ينعكــس عليهــا تأثــير الزمــن، وهــل أرى ذات يــوم نــوارة بيننــا تتحــرك بجســد فاتــن؟.

قلقــت مــن نفــسي عندمــا وصلــت لشــاطئ هــذه الأفــكار، إن تعلقــي بنـوارة يتحـول لنـوع مـن التعلـق المرضي، ومـع مراهقتـي وهرمونـاتي التـي تعبـث بي أصبحـت أتمناهـا وأشـتهيها.

الأمر صادم ومخيف، ولكنه مثير كذلك.

أنهيــت الروايــة، فشــعرت أن روحــي تطهــرت مــن كل مــا يدنســها، واجتاحتنـي نشـوة عظيمـة. لا أعـرف مقـدار النشـوة التـي يحصلـون عليهـا مـن الجنـس، ولكنـي متأكـد أن نشـوة القـراءة أكـبر وأعمـق.

نظـرت للنافـذة فوجـدت الظـلام قـد أصبـح أكثـر كثافـة، قمـت مـن مـكاني، وتوجهـت صـوب الحـمام، لقـد سرقتنـي الروايـة، وفاتتنـي صـلاة المغـرب، وأمـام الحـوض وقفـت لأتوضـأ، ووقـع بـصري عـلى وجهـي في المـرآة.

ملامحـي تغـيرت كثـيرًا عـما كنـت أتذكـر، بـل هـي مختلفـة بشـكل كبـير، هـل أقـول ومقلـق أيضًـا.

أهو فعل النضوج؟ أم أنه شيء أخر؟!!

عبد الهادي أخبرني بهذا ذات مرة، قال أن شيئًا في ملامحي غير طبيعي، وجهي صار أكثر نحولا، ونظراتي أكثر حدة، وملامحي جميعها صارت مخيفة، ثم قال وهو يسخر مني:

- «ربما لأنك ترافق الجن».

كان تعليقًا صادمًا، وكان يلقي به على مسامعي مشيرًا إلى نوارة، التي لم يكن يراها من الأساس، ويعتبرها أحد أوهامي التي أصابتني بها الكتب التي لا أتوقف عن اقتنائها، والتي أنفق عليها جل نقودي.

يومها شعرت بقلبي ينقبض، وخوف مجهول يتسلل إلى روحي، وبظلام شديد يكتنف كياني.

إن هذا هو تأثير كلمات عبد الهادي..

إنه يستطيع بشكل مخيف مع صوته العميق أن يعطي للكلمات قوة ورهبة أكثر مما تحتمل.

فهل نوارة جنية أو عفريتة كما يريد أن يوحي لي بهذا، هي تمتلك الكثير قدراتهم وصفاتهم، ولكنها لا تشبه كل ما أعرفه عنهم، إنها شيء آخر مازلت أحاول استيعابه، ولكنها آمنة حتى هذه اللحظة.

والآن وأنا أتأمل ملامحي، يدوي السؤال في عقلي كجرس إنذار مخيف ومقلق.

هل هي آمنة فعلا، وهل سيستمر الأمر، أم أن في الغيب شيء لا أعرفه؟.

إن ملامحي تتغير بالفعل، وتكسوها القسوة بشكل مريب.

ولو استمر الأمر على هذا المنوال، فربما لن أشبه نفسي قريبًا، وربما أصير بملامح شيطان.

لا لم يبرز لي قرنان مدببان من العظام بالطبع، ولكن ملامحي كانت صادمة، وعيناي تحملان كل شر الدنيا.

- « اللعنة عليك يا عبد الهادي، وعلى كلماتك التي تعبث بعقلي».

قلتها، ثم تنفست بعمق وأنا أشيح بوجهي عن المرآة، وتوضأت وشرعت في أداء فريضة المغرب.

وفي ركعتي الأخيرة، شعرت بباب غرفتي يفتح، فتوقعت أنه عبد الهادي، فنوارة لا تفتح الأبواب مطلقًا، بل تعبرها، أو تعبر الحوائط، كما يفعل الأشباح والأطياف.

أنهيت صلاتي، ودعائي، ثم قمت ألملم سجادة الصلاة التي أحضرها أبي معه من الحجاز؛ فصارت لها قدسية خاصة، وأعطيته ظهري وأنا أضعها في مكانها المعتاد، فابتدرني قائلًا، وهو يتحرك بتوتر في أنحاء الغرفة:

- « هل هي هنا؟».

أعاد سؤال عبد الهادي وصل حبل أفكاري، وأدخلني مجددًا في دوامة القلق التي أخرجت نفسي منها بصعوبة،

فاستدرت أواجهه، لألمح على وجهه ملامح ذعر مستتر انتقل إلى روحي وأنا أدير سؤاله المفاجيء في رأسي، فهو لا يؤمن بوجود نوارة من الأساس، فتسائلت في حذر:

- « من هي؟».

فقال بنفاذ صبر:

- « نوارة يا أخي ..نوارة التي صدعت رأسي بها».

كنت أعلم أنها ليست هنا، ولكن لا إراديًا ساح بصري في أنحاء الغرفة بحثا عنها، وعدت أقول بنفس الحذر:

- « لا.. هي ليست هنا، لم تعد بعد على غير عادتها».

ثم عدت أتأمل وجهه الشاحب وقلت:

- « إنها المرة الأولى التي تسأل عنها فيها، ثم لماذا وجهك بهذا الشحوب، ماذا ألم بك يا شقيقي العزيز.. هل أثّرت إصابة يدك على عقلك، فأصبحت تؤمن بوجودها الآن؟».

نظر نحوي بعيون زجاجية تهيم في عالم أخر، قبل أن يقول بصوت متلعثم مضطرب، وإجابة لا علاقة لها بسؤالي:

- « لقد تحرك».

نظرت له بغير فهم ثم تساءلت:

- « من هذا الذي تحرك؟».

عاد الاضطراب يكسو صوته، وهو يقول:

- « عبد الحميد علوان، قد تحرك».

لم أعرف هل ابتسمت لحماقته، أم لجهله، وقلت:

- « إنها ليست المرة الأولى التي تتحرك فيها جثة عند دفنها، إن تيبس العضلات، ومراحل الغُسل و..».

قاطعني وهو يشيح بيديه قائلًا:

- «ليست هذه الحركة، ولم تكن الجثة ذاتها التي تحركت، فأنا أعلم كل ما تحدثني عنه، وأعلم أنه ميت كما ينبغي له أن يكون و.....».

قاطعته أنا هذه المرة في حدة وقلت:

- « هل تناقض كلامك بنفسك يا عبد الهادي، كيف تحركت الجثة ولم تتحرك؟!!».

أجاب في نفاذ صبر:

- « لقد تحركت الجثة، لأن شيئًا من أسفل القبر حركها».

تأملته للحظات في غير فهم، ثم قلت عن غير اقتناع:

- « ربما ثعبان، أو فأر أو ..».

قاطعني في حسم هذه المرة وقال:

- « لا.. لقد رأيت اليد العظمية المخلبية بنفسي، وهي تنسل من بين طبقات التراب عائدة إلى تحت الأرض».

صدمني حديثه فقلت:

- « هل كنت تقرأ رواياتي من ورائي، فأثرت على حسن تفكيرك، إن روايات الرعب موحية بشكل كبير.. يا عبد الهادي، لقد فككت عُقد الكفن، ووضعت التراب بنفسي فوق الجثة، ولم ألمح أي شيء غير طبيعي في القبر؟».

تجهم وجهه، وهو ينظر نحوي فيما يشبه الضيق أو الضيق الممتزج بالاستنكار وقال:

- « أنا لا أقرأ هذه التفاهات، أنا أقرأ فقط كتاب الله».

فار الدم في عروقي، عندما نعت ما أقرأه بالتفاهات، ولكنه لم يكن وقتها لأجادل أو أثبت وجهة نظري فقلت:

- « حنانيك يا أخي، ربما كنت مرهقًا، وكان هذا وهمًا».

ودون أن ينبس ببنت شفه، كشف كم قميصه، فلمحت تلك الكدمات والخدوش الغائرة، التي شوهت منظر يده.

نظرت لها في دهشة فقال:

- « كانت يدًا عظمية مخلبية، وهذا هو الدليل، فقبل أن تختفي هاجمتني وأصابت يدي!».

لا أعرف لماذا في هذه اللحظة المخيفة بالذات، سطعت في رأسي صورة نوارة، وهي تدخل القبر!!.

وخيل إلي أن هناك نقطة شديدة الأهمية قد فاتتني بسبب ردة فعل أخي عبد الهادي المفاجئة عند إصابته، وعدم إكماله الدفنة.

فنوارة لم تخترق باب القبر بهدوء كما كانت تفعل دائمًا، بل بدا لي وكأن هناك قوة غير مرئية سحبتها للداخل.

كنت أظنها تدخل بطريقة استعراضية، كعادتها في محاولة إبهاري.

ولكن الأمر قد أختلف الآن.

عاد القلق ينهش في روحي، وعيناي معلقتان بوجه عبدالهادي الذي كساه سواد الدنيا كله، وقد أخذ جسده يرتجف دون إرادته، فتمتمت في توتر قائلًا:

- « ما سر غيابك هذه المرة يا نوارة، وأي سر يخفيه قبرك يا شيخ عبد الحميد».

ومن نظرات شقيقي أدركت أنه سر خطير .

سر لا ينتمي لعالمنا.

(3)

لم يصبح علينا النهار على خير، الشمس طلعت، وأفلت بجوارها شمس صحة شقيقي عبد الهادي، فأصابته حمى شديدة، وتورمت يده المصابة واستحالت إلى كتلة قميئة الشكل ينتج عنها رائحة لا تطاق، وكأنما عقره فيها حيوان سام.

طبيب المركز الذي أحضرناه على عجل من هناك بمبلغ فادح، أخبرنا أنه يجب نقله إلى المستشفى العام حالاً، فيده بدأت في التعفن وأصابتها الغرغرينة، وأي تأخير لن يأتي في مصلحته، بل وخطرها هائل على حياته، لأن التعفن قد ينتشر في الذراع كلها، ومنها إلى باقي جسده.

وعندما جاءت سيرة البتر، تحول البيت إلى مأتم كبير.

ووسط صراخ أخوتي البنات وأمي، أتت سيارة إسعاف لتقله إلى المركز، وأثناء نقله إليها سمعت أحد أقاربنا يقول:

- « لقد أصابته لعنة عبد الحميد علوان».

وبسبب هذه الجملة حدثت مشادة كلامية بينه وبين أحد أقارب الفقيد من أصدقاء عبد الهادي الذين قدموا لعيادته.

ولكني كنت في عالم آخر،

أفكر في إصابة شقيقي، وقصته عن اليد المخلبية التي هاجمته وعادت إلى باطن الأرض .. و.. وغياب نوارة.

إنها المرة الأولى التي تتعقد فيها الأمور بهذا الشكل منذ موت أبي، وأجد نفسي المسئول الأوحد عن أسرتي وشقيقي، الذي قرر بكل شهامة، مع تقاعسي ورعونتي وأفكاري الجامحة في هذا الوقت، أن يحمل عبئها، على كاهله.

إن كلمة البتر.. كلمة مروعة لا تأتي أبدًا على عقل إنسان طبيعي إلا وزلزلته.

أن تفقد جزءً من جسدك، أن يغادرك إلى الأبد، أن تحيا بعاهة مستديمة تعجزك عن ممارسة عملك، وتقف حائل بينك وبين أحلامك ورغباتك، هو شيء رهيب.

والأبشع هنا.

أن يتعفن هذا الجزء، ليس عن إهمال وليس عن سبب منطقي يمكن قبوله.. بل بواسطة يد مخلبية خرجت من أسفل القبر .

لو لم يكن هذا هو الجنون، فما هو الجنون؟

أعرف جيدًا أن عبد الحميد علوان، كان رجلا صعب المراس يخوض المشاكل دون تردد من أجل الآخرين،

وكانت هذه هي أكبر مساوئه وميزاته، لذا حظى بحب عدد كبير من أهل القرية، رافقوه في جنازته إلى مثواه الأخير..

وما أنا متأكد منه؛ أنه لا توجد لعنة مرتبطة به، ولم يشتهر بخوضه في عالم السحر أو الجان، كما أنه لم يكن أول ولا آخر من دفناه في هذا القبر دون مشاكل، فهل يتعلق الأمر بنا نحن.

أبي مات موتة عادية وجدي كذلك.

إذًا السر يكمن في القبر نفسه .

قبر عائلة عبد الحميد علوان.

ولابد من زيارته، وهذا لن يتم إلا بعد أن أطمئن على شقيقي عبد الهادي، الذي يرقد الآن عاجزًا في مستشفى المركز، بعد أن كان يسد بجسده عين الشمس .

وفي المستشفى الحكومي العام بإمكاناتها البائسة، وأطبائها اللامبالين، كان الأمر كارثي.

الطبيب يطلب مني بكل برود، ودون اهتمام، أن أوقع على أوراق الموافقة على بتر ذراع شقيقي.

بل وحدثني ذلك الأحمق في هذا الأمر أمام أمي وشقيقتاي، دون مراعاة كونهم نساء، أو ينزفون ألمًا على مصابهم.

إنه متعجل ويريد أن ينهي عمله.

صوت صراخ شقيقي عبد الهادي لا يتوقف، ويخلع قلوبنا منذ وصل إلى المستشفى وبدأو في تطهير جرحه، وهو على هذه الحالة المفزعة!

ماذا فعل له هؤلاء الأطباء الأوغاد ليصرخ بهذه الطريقة التي تمزق نياط القلوب؟!.

الأعصاب في انفلات، والحزن كالمطر يغرق كل شيء دون رأفة.

صوت صراخ أخوتي ودموع أمي لا ينقطعان.

- « القرار قرارك».

قالها الطبيب وكأنه يسألني أن أشعل له لفافة تبغ، لا عن بتر ذراع

شقيقي، الذي كان من الواضح مع صراخه الذي يرج المكان، أن المورفين لا يجدي معه وأن الألم لا يطاق.

نظرت للطبيب بعين غارقة في الدموع وسألته في يأس:

- « ألا يوجد بديل آخر؟».

يرد في نفاذ صبر:

- « البديل الوحيد أن نترك الغرغرينة تنتشر، ليتسمم جسد شقيقك ويموت، هل ستوقع أم أبحث عن شخص آخر مسئول «.

وقعت ومعها وقع قلبي في قدمي، وأمي فاقدة الوعي، وشقيقتاي على الأرض من الذهول، ومن المصير المفاجئ الذي واجه عبد الهادي.

ساعة كاملة لا أعرف كيف مضت علينا، وبعدها خرجت ممرضة كئيبة السحنة، تحمل في يدها لفافة، ناولتها لي وقالت:

- « هذه ذراع شقيقك عليك دفنها».

نظرت نحوها في ذهول وأنا أردد في غير وعي:

- « دفنها!!».

نظرت لي بدهشة، وكأنني أتحدث بلغة منقرضة وقالت:

- « نعم عليك دفنها.. والأفضل...».

خفت صوتها وهي تقول:

- « حرقها.. إن ما رأيته بالداخل لا يمكن أن يكون شيئًا طبيعيًا أبدًا.. ما الذي أصاب أخاك بهذه الإصابة الملعونة».

صمتي ونظرة الذهول التي رمقتها بها، أجبرتاها على المضي وهي تمصمص شفتيها، متعجبة من ذوي مرضى آخر الزمن.

لم ألتفـت لهـا أو لمشـاعرها، وهـي تتحـرك سـاحبة خلفهـا طـن مـن الدهـون، بينـما كان عقـلي في مـكان آخـر .

كنت أفكـر في مـا قالتـه، وفيـما أخـبرني بـه شـقيقي عـما أصـاب يـده بهـذه الإصابـة الفادحـة، وأنـا أتسـاءل في ارتيـاع:

هل سيتحتم علي في النهاية إحراق ذراع شقيقي المبتورة؟

ألن أُكرِم بالدفن ذلك الجزء الميت من يده، والذي سيسبقه إلى القبر.

هل قصة اليد العظمية المخلبية حقيقية؟.

وهل لها علاقةباختفاء نوارة الغامض؟.

وفي النهاية أدركت أنه لا مناص أمامي من زيارة القبر الملعون.

قبر عبد الحميد علوان.

فقط علي أولا أن أدفن ذراع شقيقي المبتورة أو أحرقها.

وفي ركـن بعيـد خـارج المستشـفى، بالقـرب مـن سـورها الجنـوبي فتحـت اللفافة..

وكان ما رأيته مفزعًا..

وسيطاردني في كوابيسي حتى أذهب أنا أيضا إلى القبر.

فقد كانت اليد المشوهة عفنة الرائحة تغص بعروق زلالية قاتمة..

كما أنها كانت تنبض..

نعم تنبض.

تنبض وكأن لها قلبٌ خاص بها.

* * *

(4)

كانـت ليلـة سـوداء قضيتهـا بـين المقابـر، وبـين المستشـفى العـام، عبـد الهـادي مـازال تحـت رحمـة الغيبوبـة، وأمـي وشـقيقتاي قابعـات هنـاك ترفضـن جميعـا تنـاول الطعـام أو حتـى شرب المـاء أو الراحـة، أو تركـه وحيـدًا، لا شيء تقمـن بـه سـوى الدعـاء والصـلاة والبـكاء.

لقـد بـدأن الحـداد مبكـرًا، وهـا أنـا أحمـل بـين يـدي قاتـل أخـي عـلى هيئـة كتلـة مـن العفـن النابـض، التـي يـزداد حجمهـا في كل لحظـة، ممـا جعـل فكـرة حرقهـا مستسـاغة جـدًا عنـدي.

فأنـا في هـذه اللحظـة، لـن أحـرق جـزءً مـن شـقيقي، بـل الـشيء الـذي حـاول قتلـه والفتـك بـه. ولكـن كلـمات أمـي الناحبـة تمـزق قلبـي وتـرج كيـاني:

- «غسـل ذراع شـقيقك وكفنـه، وصـلِ عليـه، فأنـت سـتدفن معـه قطعـة مـن روحـي».

التردد يغمر روحي.. من يجرؤ على حرق جزء من روح أمه؟.

كـما أني لـن أجـرؤ عـلى دفنهـا في مقـبرة العائلـة، ولهـذا أسـباب كثـيرة، علمـت إحداهـا الآن.

لقـد ذهبـت بالفعـل إلى هنـاك، أحمـل هـذه المصيبـة بعـد أن وضعتهـا

في كيس بلاستيكي سميك، كانت قد أحضرته أمي من أحد محلات الملابس، قلل من حدة الرائحة ولم يقلل من ثقلها النفسي أو رهبتها.

وكما ذهبت عدت بها، وكأن قوة أكبر مني أجبرتني على فعل هذا.

كما أني كنت أرفض من داخلي أن يحتويها المكان الذي يحتضن رفات أبي وأجدادي، لن أدنس مقبرتهم بهذا الشر الخام، كما لن أدنس أي مقبرة أخرى بها.

الفضول يقتلني لأعرف حقيقة ما حدث.

عقلي يرفض وجود كائنات حية تسكن تحت الأرض، لها جسد مادي وتبث السم من مخالبها.

أنا أتقبل أن يسكن الجن هناك والشياطين، ولكن وحشٌ يمتلك مثل هذه الصفات، هذا أكبر من خيالي ذاته، ولم يحدث من قبل.

وإن كنت أعلم أن هناك مرة أولى لكل شيء، مرة لعينة نفقد فيها إيماننا بكل الثوابت والمعتقدات.

وأنا لن أستسلم ببساطة لهذه الفكرة.

علي في البداية أن أعرف حقيقتها، ثم أدفنها تحت الأرض في مكان مجهول؛ اتقاءً لشرها.

لن أستطع تنفيذ وصية أمي بتغسيلها، فأمي لم ترَ إلى ماذا تحولت ذراع شقيقي، حتى جثة زين بن عبد العال المحترقة، كانت مقبولة عنها، ولم آنف أنا أو عبد الهادي من غسلها وتكفينها، ولكن هذه البشاعة!.

لن أستطيع وصفها لكم فاعذروني.

ولذلك ظلت اللفافة الملعونة تقبع في غرفتي لعدة ساعات، وأنا أتأملها في ذعر وتهيب.

الرائحة مع الوقت أصبحت لا تطاق، ولا يمكن تصورها.

أرمقها من بعيد دون أن أقترب منها، والهلع يصنع بيني وبينها سدًا منيعًا، وبدأ يخيل لي أنها بدأت تتحرك وتكتسب بعض الروح، بل هي تتحرك بالفعل.

كلب ينبح في الخارج فيجف الدم في عروقي، وأنا أحاول أن أتخيل الشيء البغيض الذي سيخرج من هذا العفن.

الانتظار حمل ثقيل لم أستطع الصبر عليه، فرددت بعض الآيات القرآنية، وعزمت على فتح اللفافة.

لابد أن أصل لقرار معها لأعود لشقيقي في المستشفى، فلن أتركه ليواجه الأمر وحده عند إفاقته، ويكتشف أنه فقد أحد أطرافه.

شال أبي الأحمر المنقط بنقط بيضاء والملتف حول فمي وأنفي، والذي أحضره معه من الحجاز في رحلته الأخيرة، عاجز تمامًا عن قهر ملكوت الرائحة.

أتوكل على الله، وأتناول من فوق الدولاب الخشبي مفك ذو طرف مستدق، وله يد بلاستيكية، يحتوي في هيكلها الشفاف على مصباح داخلي دقيق، وأقترب منها.

أقترب في توجس وقلق.

أقترب وأنا أتوقع كل شر.

أفتح الكيس البلاستيكي بالطرف غير الحاد، ثم أزيح الطبقة

العليا من اللفافة القطنية، التي صارت مبللة وداكنة وكأنها تنز بالقيح والصديد.

العروق الزلالية البيضاء تطفح بمادة مقرفة أثارت اشمئزازي.

الرائحة الخانقة تتسرب إلى أنفي ..

شيء أقوى من رائحة الموت وتعفن الجثث.

شيء أقوى من تحملي، لكنني أصمد، وأُكمل فك اللفافة التي اهترأت تمامًا، وكأن كتلة العفن هذه تنز حمضًا ضعيفًا..

لامس المفك سطح الكتلة المتعفنة النابضة فأضاء.

جفلت للحظة ثم فكرت أن هذا قد يعني شيئًا مريبًا أو لا يعني أي شيء، نفس المفك لو لامس أي جسد بشري سيضيء، كهربية الجسم تفعل ذلك.

أزحت آخر طبقة مهترئة من القطن والقماش، ثم تأملت كتلة العفن في دهشة.

لم تكن كتلة صافية من العفن والقيح والصديد كما كنت أتوقع.

كانت هناك أنسجة شبه بشرية تتكون.

ذراع صغيرة تشبه ذراع أخي المبتورة تنبت هناك.

ذراع بحجم أصبع.

شيء يفوق تخيلي وكل ما قرأته من قصص وروايات خيالية.

الرائحة تتغلغل إلى رأسي بشدة.

الإصبع يتحرك.

إنه يهاجمني..

يلمس يدي، فأشعر بتيار عنيف من الكهرباء يصعقني.

لقد تمكن الوحش مني.

الألم شنيع.

جسدي فقد قوته، ووعيي يتسرب ببطء.

أرمق اللفافة من مكاني، ورقبتي تؤلمني من الزاوية الحادة التي أنظر منها إليها، وكل رعب العالم يتملكني.

أشيح ببصري في الغرفة باحثًا عن الذراع القزمة.

اختفت الذراع.

ومن بين الأنسجة وكتلة العفن، لمحت اليد المخلبية التي حذرني منها شقيقي تبرز بقوة، ومخالبها مشرعة نحوي.

أسمعُ صوتَ صخبٍ بالقرب من النافذة فأدير رأسي بسرعة، فيصيبني الدوار، لتبدأ نقاط سوداء في حجب الرؤية عن عيني.

وبرغم ذلك، ألمح نوارة في مشهد مدهش تخترق النافذة وتحطم زجاجها، وتتجسد في منتصف الغرفة بيني، وبين تلك اليد المخلبية..

أحاول أن أصرخ فيها لتبتعد دون جدوى..

لا طاقة عندي حتى للصراخ.

الرؤية تغيم أكثر..

صوت خطوات هلعة..

شقيقتي خلود تفتح باب الغرفة، تندفع في هلع إلى داخلها.

- « اهربي يا خلود.. اليد ستفتك بكِ».

الكلمات لا تغادر حلقي.

يفاجئها المشهد الرهيب فتصرخ، ثم تبدأ في سحبي من قدمي، إلى خارج الغرفة، وهي تحيط وجهها بطرحتها.

أحداث كثيرة رأيتها، ومررت بها قبل فقدان الوعي.

وآخر ما صفع أنفي وعيني، هو رائحة الدخان التي خرجت من غرفتي، ومشهد النيران المستعرة، وهي تلتهم كتلة العفن التي كانت تتلوى، وكأنها حية ..

وكأنها لم تكن في يوم من الأيام جزء من ذراع شقيقي..

الرؤية تظلم تمامًا.

الفكرة المريحة تستقر في عقلي.

لقد أنقذتني خلود.

ولكن كيف؟

وفي آخر لحظات انسحاب وعيي تذكرت نوارة.

ولم أعرف كيف تم التواصل بينهما؟،

لا أحد يراها غيري.

وعندما كسا الظلام كل شيء.

تبخرت الدهشة وكل الأسئلة.

***

(5)

كانـت أيامًـا عصيبـة عـلى شـقيقتاي، وأثقـل وطـأةً عـلى أمـي، فأن يسـقط أحـد أبناءهـا عـلى فـراش المـرض فهـو شيء يمكـن احتمالـه مـع كثـير مـن الصـبر والألم، ولكـن أن يسـقط ولداهـا في يـوم واحـد، ولنفـس السـبب المجهـول فهـو شيء أقـوى مـن تحمـل أي أم.

لم تطـل غيبوبتـي سـوى يومـين فقـط، اسـتيقظت بعدهـا في كامـل وعيي، ولاحظـت للوهلـة الأولى أننـي لسـت في فـراشي، بـل بداخـل المغطـس البدائـي الموجـود في حمـام بيتنـا، جسـدي عـارٍ تمامًـا، ومغطـىً بكميـة كبـيرة مـن الملـح المشـبع بأحـد الزيـوت العطريـة.

كان صـوت غطيـط شـقيقتي خلـود يـأتي مـن الخـارج، لقـد هزمهـا جسـدها أخـيرًا وسـقطت في النـوم، وأمامـي عنـد حافـة المغطـس كانـت تقـف نـوارة، وعـلى وجههـا ارتسـمت ابتسـامتها الطفوليـة المحببـة.

رأيتهـا فكسـتني قشـعريرة بـاردة، لم أكـن أشـعر بجسـدي المخـدر ولكـن وعيـي كان حـاضرًا فابتدرتهـا بصـوت متوجـس متسـائلا:

- «هل ذهبت.. أنا..أنا.. هل ذهبت؟!»

اتسـعت ابتسـامتها الطفوليـة فكسـت كامـل ملامحهـا، وهـي تهـز رأسـها قائلـة:

- « لا .. ما زلت أنت هنا.. أنا من كدت أن أذهب».

تنفست بعمق، وأنا أحاول أن أحرك أطرافي، لأتأكد من صدق حديثها وقلت:

- « أين كنت طوال هذه الفترة يا نوارة، لقد أقلقتِني عليكِ؟ّ».

أشارت بيدها إلى اتجاه المقابر وقالت:

- « كنت هناك.. كنت في المقبرة».

أصابتني دهشة شديدة فقلت:

- « وماذا كنت تفعلين هناك كل هذا الوقت؟».

ظهر على وجهها الألم، وكأنها تتذكر ذكرى مخيفة، وقالت:

- «لم يكن الأمر بيدي.. لقد وقعت في أسر القادم من السماء».

سرت في جسدي رعدة عنيفة، ومعها شعرت بأصابعي تتحرك، فتجاهلت الأمر وقلت في دهشة:

- «أي قادم من السماء.. أهو صاحب اليد المخلبية؟».

ظهرت الحيرة جلية على ملامحها وقالت:

- «عن أي يد مخلبية تتحدث؟»

أجبت على الفور:

- «اليد المخلبية التي أصابت أخي، وأدت لبتر ذراعه».

قالت بصوتها الرقيق الحائر:

- «لم تكن هناك أي يد مخلبية في المقبرة، أنا أتحدث عن النيزك».

صدمتني الإجابة أكثر مما لو كانت تتحدث عن مخلوق جهنمي قادم من الفضاء، لديه مخالب مسممة فقلت:

- «أي نيزك يا نوراة؟..»

ثم شردت،وتذكرت.

لم يكن الظلام بداخل المقبرة دامسًا؛ لأنه كان هناك خيط من الضوء يتسلل عبر فتحة مستديرة، ربما لو دققت النظر فيها لرأيتها محترقة، ولكن ما أصاب شقيقي أفقدني التركيز، كما أن حالة المقبرة لم تكن بالشيء الذي يعنيني حينها مع الرائحة الشنيعة وسيل الذباب الذي لم يتوقف لحظة عن النفوق.

وكأنها لم تنتبه لشرودي قالت:

- « نيزك مشع لعين يحتوي بين طياته بكتيريا غير أرضية، هي ما أصابت أخاك عندما لمسها، وكانت تحتوي على مجال إشعاعي قوي كاد يفتك بي بعد أن جذبني إليه-طبيعة خلايايا اللعينة في عالمكم هذا-لولا أنني أستطعت الفكاك من قبضتها، لم تكن لتراني مرة ثانية».

نظرت لها بغير فهم، وعقلي يسترجع ما قاله بعض العلماء عن أن اللقاء الأول مع مخلوقات فضائية سيكون مع البكتيريا، ولكن أن يحدث اللقاء هنا في قريتي وفي المقابر، هو شيء لا يصدقه عقل.

وهنا أضاءت فكرة في رأسي، فألقيتها على مسامعها، وأنا أحرك بصعوبة أصبع قدمي اليسرى الكبير تحت ذلك المزيج من الملح، والزيت العطري. قلت لها بصوت مشكك:

- «بكتيريا من الفضاء.. ولكن شقيقي عبد الهادي رأي اليد المخلبية، بل ورأيتها أنا أيضا، وصعقتني بالكهرباء».

هزت رأسها في فهم ثم قالت:

- «ليست من فضاءكم.. ولا تسألني عن تفسير لأن وقت كشف الأسرار لم يحن بعد.. لتعرف فقط أن خصائصها تختلف عن بكتيريا عالمكم.. إنها أقرب لكائن ذكي طفيلي.. كما أنها تفرز مزيج من حمض ضعيف ومادة مثيرة للهلاوس، لقد وقعت ضحيتها كما وقع شقيقك من قبلك، هو تنفسها في المقبرة، وأنت استنشقتها هنا، وكان علي أن أتصرف..

لقد شعرت بك وبمعاناتك، وهذا ما ساعدني على التخلص من قبضتها المسيطرة.. لم أتخيل قط أن أفقدك».

رمقتها بعيون مندهشة حالمة، ولم أعقب على حديثها الغريب، فإن كنت لا أعرف حتى هذه اللحظة من أين جاءت ولماذا؟

فهل سأتساءل عن بكتيريا فضائية من فضاء مغاير، إن الفضاء في عقلي كله واحد، فقط هناك فضاء قريب، وفضاء بعيد.. فضاء معلوم، وفضاء مجهول.. وما يشغلني في هذه اللحظة هو الفضاء الذي يفصل بيني بينها ويمنعني من ضمها الآن.

إنه الحب المستحيل كما أطلق عليه ..

لست وحدك برغم غموضك يا نوارة من تلتهمك هذه المشاعر الجياشة، وتحرقك نار البعد والشوق..

لست وحدكِ من تحلمين بالظفر بمن يعشقه قلبكِ..

ولكننا للأسف من عالمين مختلفين.. لن يلتقيان أبدًا..

ثم، هل لك قلب حقا؟.

الحب كان قادرًا على اختراق المسافة والزمن وقهر الاختلاف، ولكن طبيعة أجسادنا لن تمكننا من لقاء حقيقي، أنت هنا ولكنك تبحرين في بعد أخر.. بقوانين أخرى.

وعند هذه النقطة تذكرت..

كيف قمتِ يا نوارة بكسر زجاج الغرفة، وأنت أقرب لطيف، لا كيان مادي له، ولا جسد لك !

نظرت نحوي ثم تجهمت وقالت:

- « بكتيريا النيزك لم تقتلني.. ولكنها غيرتني.. صرت أتمتع ببعض القدرة على التجسد».

كان خبرًا مبهجًا..

أخيرًا يمكنني لمسها..

يمكنني الشعور بدفئها.

وهنا قطع أفكاري صوتها الحزين وهي تقول:

- « في موقف آخر كنت سأكون أسعد من أي كائن آخر في الكون، ولكن هذا التجسد لم يكن دون ثمن، لقد تغلغلت البكتيريا في تكويني، واندمجت مع تركيبتي الخلوية، وصرت عند تجسدي أخطر من حية رقطاء، فكل جزء من جسدي يشع بسم قاتل».

أُسقط في يدي.

كان حلمًا أجمل من أن يتحقق.

لم تعد نوارة بعيدة عني فحسب، بل صارت خطرًا كذلك.

وكي أخرج من دوامة هذه الأفكار السلبية، سألت نوارة عن حقيقة لقائها بخلود شقيقتي، وكيف أقنعتها بالقدوم لإنقاذي.

أجابت بفتور:

- « لم يكن علي أن أقنعها، كان علي فقط أن أسيطر على أفكارها، أنت تعلم أنني أمتلك هذه القدرة، كما أمتلك القدرة على التخاطر،

وقـراءة العقـول بشـكل معقـول، فلـم أكـن لأجـازف بمحاولـة إنقـاذك، وأنـا أحمـل نفـس السـم في كل خليـة مـن خلايـا جسـدي».

تساءلت في حزن:

- « إذا هي لم ترك؟!».

أجابت بنفس الفتور:

- « بـل رأتنـي، ولكنهـا لـن تتذكـرني.. لـن يكـون لي غـيرك في هـذا العـالم، لقـد أخبرتهـا بـدواءك الشـافي، بالسـم القـادر عـلى قتـلي أيضًـا، هـذا المزيـج فعـال حقـا.. وهـا أنـت ذا بخـير حـال.. بضعـة أيـام وسـتعود كـما كنـت، ولكنـي لـن أعـود كـما كنـت، أو أكـون لـك أبـدًا».

كلـمات مفعمـة بالمشـاعر، لا أتخيـل أنهـا قادمـة مـن مخلوقـة مـن عـالم أخـر، تشـوهت ببكتيريـا موبـوءة قادمـة مـن فضـاء أخـر عـبر نيـزك تسـبب في بـتر ذراع شـقيقي، وحـرم علينـا القـرب لأنهـا تحمـل خلايـا قاتلـة.

لا يوجد شخص منحوس مثلي..

لأنني مهما انتظرت.. فسيكون انتظاري بلا أمل.

وكأنهـا كانـت تشـعر بي، وبـما يمـوج بأعماقـي، لـذا فإنهـا اسـتدارت بوجـه كاسـف لتغـادر، فناديتهـا قائـلًا:

- « نوارة».

ودون أن تستدير أو تتوقف قالت بصوتها الحزين:

- « أعلم».

وبكلمتهـا الأخـيرة هـذه قطعـت عـلي كل سـبيل لمواسـاتها أو مواسـاة نفـسي، فعـدت كسـيف البـال أحـاول أن أسـتعيد سـيطرتي عـلى جسـدي، وعـلى أطـرافي العاجـزة.

وبعد ساعات بدأت أشعر بآلام عنيفة في كل خلية من خلايا جسدي..

لقد طرد جسدي البكتيريا، وقضى المزيج على سمومها، وتقرح جلدي في أماكن كثيرة..ولكنها كانت إصابات محتملة..

الأيام التالية كما أخبرتكم كانت عصيبة على الجميع..

ولكن أهم شيء حدث فيها، هو عزل قبر عبد الحميد علوان، بعد أن أقنعت الجميع حالة شقيقي المتردية، وتقرير المستشفى الغامض، وسعي الدؤوب مع بعض كبار العائلة بين عمدة القرية ومأمور المركز، أنه قبر ملعون، فتم بناء سياج خرساني حوله، كقبر إضافي.

وتكفل أبناء الفقيد ببناء قبر آخر للعائلة، دون أن يجرؤ أي منهم على فتحه أو إخراج رفات أبيهم من داخله.

ما أخبرتني به نوارة بعدها كان مفزعًا.. ولكن طوته الأيام عندما لم يعد منه خطر.. فقد أخبرتني أن البكتيريا أصابت أفعي ضخمة، قبل إغلاقنا القبر..

وأن هذه الأفعى المصابة، مسجونة الآن خلف السياج الخرساني، تنتظر تعيس الحظ الذي سيغلبه الفضول ليعرف سر القبر.

إن هذا خطر بعيد عنا في هذه اللحظة برغم قربه.

وما يهمني الآن أن خلود أحرقت الكتلة المتعفنة التي كانت في يوم ما جزء من ذراع شقيقي، وقمت أنها بوضعها داخل صندوق معدني وصببت عليها الخرسانة ودفنتها، لينتهي الخطر مؤقتًا.

* * *

كوني يا أرض وشاحًا فوق الموتى

كوني يا أرض جناحًا فوق الموتى

كوني يا أرض سلامًا فوق الموتى

ما أقسى الأرض على الموتى

«صلاة الموتى» نجيب سرور

أم الجماجم

(1)

يقولـون أن النحس عندما يـضرب مـكان مـا.. يغـرس جـذوره فيـه إلى الأبـد، ولا يخـرج منـه، حتـى يصيـب كل قاطنيـه بـالأذى.. فيبـدل أيامهـم وأحوالهـم، مـن النقيـض إلى النقيـض.

وهذا العام كانت قريتنا منحوسة بشكل كبير..

الأمطـار التـي ينتظرهـا الفلاحـين مـن العـام إلى العـام لـيرووا بمياههـا محاصيلهـم الموسـمية، والتـي تتجمـع عـبر مجـاري الأمطـار في الترعـة الكبيرة كانـت سـيولا جارفـة أغرقـت كل شيء بشـكل فوضـوي،

لدرجـة أنهـا تسـببت في الانقطـاع التـام للكهربـاء لثلاثـة أيـام عـلى التـوالي، واليـوم الرابـع بـدأ دون أي تغـير أو تحسـن في الطقـس.

وهـذا صعّـب إلى درجـة كبـيرة، مهمـة عبـد المجيـد الغـزولي صاحـب محـل الأقمشـة، في البحـث عـن أبنائـه المختفـين.

حنين البالغـة مـن العمـر أربـع سـنوات، وأمجـد البالـغ مـن العمـر سـت سـنوات، طفـلان لا يعرفـان عـن الدنيـا شيء، يواجهـان المطـر والظـلام، وربـما مـا هـو أسـوأ.

بأعماقـه كان عـلى يقـين تـام بأنهـما لحقـا بأطفـال القريـة الثلاثـة الآخريـن،

اللذين اختفوا في مثل هذا التوقيت من العام الماضي، وبالأربعة اللذين سبقوهم قبلها بعام، ولم يُعثر لهم على أدنى أثر، برغم الجهود الحثيثة التي تمت وقتها للبحث عنهم.

ولكن هذا لم يفت في عضده أو يصبه باليأس، فلم يتوقف لحظة واحدة عن البحث أو الهستريا.

كان منظره بثيابه التي لم يبدلها منذ يومين وقد اتسخت بالطين يفطر القلوب، وكان عقله هائمًا سارحًا في مصير زهرتيه، ومن أعماقه كان يتمنى لو أن عصابة ما قد اختطفتهم، وستطالب بفدية ما..

سيبيع أرضه وبيته وثيابه لو تطلب الأمر.. فقط ليعودا إلى أحضانه..

إنه سيجن..

مر يوم كامل، واليوم الثاني انتصف دون أن يعثر لهما على أدنى أثر وكأنهما تبخرا، أو لم يوجدا من الأساس.

لقد كانت دقيقة واحدة.. دقيقة واحدة خرجا فيها على باب منزلهم لمشاهدة الأمطار.. دقيقة واحدة فقط تم فيها الأمر.

لقد قلب عليهم الدنيا برغم الجو العاصف دون جدوى..

ومازال البحث مستمرًا دون نظام أو ترتيب، بسبب الكوارث التي سببتها السيول الرهيبة التي لم تتوقف منذ يوم ونصف.

كانت القرية في حالة من الفوضى الكبيرة، ففي الوقت الذي كان عبد المجيد الغزولي وعائلته وبعض المتطوعين يمشطون القرية، شارع شارع، وحارة حارة، بحثا عن أبنائه الغائبين. كانت السيول تجتاح بوقاحة كل شيء.

لدرجة أنها أفسدت جميع المحاصيل الزراعية في هذا الزمام، وعديد من البيوت غرقت وتلف سقفها، كما أن القمح في شونة الغلال تعفن، وتضرر العديد من المقابر، وبعضها لفظ الجثث أو بقاياها التي كانت بداخله بشكل شديد الهمجية، أصاب كل من رآها بالروع والهلع، ففزع أهل القرية ونحن على رأسهم إلى هناك.

وهذا هو الجزء الذي يهمنا هنا.

مقابر كثيرة كانت في حالة يرثى لها.. سيستلزم الأمر منا جهدًا خارقًا لنتمه، ونعيد بقايا الموتى إلى مثواهم الأخير.

تم استدعاء البنائين من كل مكان، البعض منهم تبرع بجهده، وبعض الأثرياء بالمواد المطلوبة..الظروف تحتم على الجميع التكاتف.

المقابر امتلأت عن آخرها بعائلات أصحاب القبور.

المشمعات البلاستيكة فرشت، والجثث أو بقاياها رصت عليها بعناية، وتم تغطيتها بمشمع آخر، كان يصدر أصواتًا مزعجة مع سقوط الأمطار عليه.

البناؤون يعملون في أجواء شديدة السوء، وشكائر الأسمنت تتلف لو غُفل عنها لبعض الوقت. والبعض - ممن لن يستطيع إنجاز بناء مقبرته بالسرعة المطلوبة في ظل هذه الظروف-دفن موتاه على غير رغبته في قبور غريبة عنهم.

الجو كان مشحونًا، والمشاجرات التي بسبب وبلا سبب لم تنقطع، حتى ظهر العمدة، وشيخ غفره، ورجاله، وأعادوا النظام إلى المكان.

وعلى أثر تواجده المستمر، عاد الهدوء المليء بالحزن والترقب إلى الأجواء المفعمة برائحة الموت وبقايا الموتى.

لماذا تنظرون إليّ هذه النظرة؟

أعرف جيدًا التساؤل الرهيب الذي يدور بعقولكم..

بل أعرفه من أول لحظة، وأجّلته عن عمد إلى نهاية حديثي، لأنه بالفعل أول ما جال في خاطري عندما سمعت عن هذه الفاجعة.

لن أترككم نهبا للفضول، فجميعكم تتساءلون عن تأثير هذا الحدث المفاجئ على القبر الملعون.

ولكن لتطمئن قلوبكم، وتركن للسكينة، فقبر عبد الحميد علوان ظل صامدًا، بجدرانه الخرسانية السميكة، والسياج الإضافي الذي أحيط به، عازلا الخطر الكبير الكامن بداخله عن عالمنا، وإن ظل وسط الخراب الحاصل كتهديد متوقع ونذير شؤم.

الأمطار برغم شدتها وقسوتها، لم تفتح علينا بوابة جهنم القادمة من الفضاء الخارجي، والتي حيدنا خطرها بشكل كبير وإن لم نعرف كيف ننهي هذا الخطر إلى الأبد، ولكنها كشفت عن شيء رهيب أخر لا يقل بشاعة وخطورة عما يحتويه قبر عبد الحميد علوان.

كشفت عن سر الحاجة تهاني المظلم..

عجوز قريتنا الغجرية غير المحبوبة.. التي تمتهن قراءة الطالع، وضرب الودع، وفتح المندل، وغيرها من تلك الأشياء التي أعتبرها مزيجًا من الدجل والشعوذة والنصب.

إن الغجر نصابون بالفطرة؛ يسرقون الكحل من العين، ويلعبون بالبيضة والحجر.

ولكن تهاني كانت تلعب بما هو أخطر.

وهو ما كشف عنه ذلك القبر المتهدم الآخر، والذي كان يقبع في الجهة القبلية من المقابر، والذي تهاوى جانبه الشرقي نتيجة هبوط شديد وتخلخل في التربة، بعد أن أغرقته الأمطار فكشفت ما في أحشائه.

كان قبرًا قديما جدًا لعائلة لم يتبقَ منها إلا تلك الغجرية العجوز، تهاني ذات الملامح المتغضنة، التي تحيا آخر أيامها، وتقوم خلالها بممارسة شيء يدل على أنها لا تخشى نهايتها القريبة، ولا تبالي بنار الجحيم التي خلقت - من الأساس - لأمثالها.

سأصفها لكم أولاً قبل أن نخوض في قصتها..

نحيلة هي كعود ذرة جاف، قامتها منتصبة كوتد خيمة، لا يظهر مرور العمر إلا على وجهها المليء بالأخاديد ومجاري الدموع.

عجوز لم تفقد قوتها أو صحتها برغم أنها تجاوزت الثمانين عامًا، فقط لوثت وجهها فرشاة الزمن، ولم يُطفأ بريق عينيها.

كانت في حياتها مأساة كبرى.

فقد فقدت في حرب اليمن شقيقها الأكبر، وزوجها، وفي حرب أكتوبر فقدت ابنها الأكبر، وفي حادث مشؤم فقدت ابنها الثاني، وصارت كما يقولون مقطوعة من شجرة، تواجه عواصف الحياة وحدها دون سند أو معين.

ومن يومها ظلت ترتدي السواد حتى يومنا هذا.

البعض أكبر مأساتها والبعض وصفها بالبومة الشؤم، ربما قصتها هذه من القصص غير المشهورة، لأن الحرب لم تترك بيت واحد في محيط محافظتنا إلا واقتنصت أحد أبنائه.

الحرب كالنار، وكلما أمددتها بالأرواح طالبت بالمزيد.

وبعد أن مات كل من تهتم لأمرهم، وبقيت هي بعدهم على قيد الحياة، أختفت الحاجة تهاني لفترة طويلة، قبل أن تعود لتظهر في بيتها القديم، وتبدأ في ممارسة مهنة أجدادها.

ودائما كان كل من يصادفها يراها تهيم في اتجاه المقابر، إما آتية منها أو ذاهبة إليها. في أوقت كثيرة وغريبة، ولكنها لم تكن مريبة نظرًا لقصتها المأساوية.

ولم تكن تهاني تتحرك في أي مكان، إلا وفي صحبتها جوال من الخيش لم يكن أحدًا يعرف محتواه.

لم تفتح جوالها الغامض أمام أي شخص، ولو مرة واحدة.

ومع زياراتها الكثيرة للمقابر ظن الجميع أنه يحتوي على بعض الرحمات التي توزعها -على روح من فقدتهم -على زوار المقابر، خاصة يومي الخميس والجمعة.

أما أنا فقد ألقاني القدر في طريق تهاني الغجرية، لأكتشف بالمصادفة سرها الرهيب، الذي كانت ماهرة للغاية في إخفاءه.

ربما، لأن أحدًا لم يتوقع أبدًا أن لديها سر مماثل، أو أي سر من الأساس.

ولكن شاءات الأقدار أن ينكشف المستور..

فذات يوم أثناء سيرها البطيء بجوار سور الجمعية الزراعية الموجودة على أطراف البلدة بالقرب من المقابر، هاجمها كلب مسعور، وعقرها في قدمها، ومزق الجوال الخيشي الثقيل الذي كانت تحمله، لينكشف أمام من هبوا لإنقاذها سرها المخيف.

وكنت أنا بالطبع واحدًا منهم..

كنا خمسة، نجلس على المقهى المنعزل ندخن الشيشة، أنا وأبُنُوب صديقي المسيحي، وحارس الجمعية الضخم مفتول العضلات، راجي الشايب، واثنان من عجائز القرية الذيَن اكتفيا بالمشاهدة دون أي تدخل منهما.

حاولنا في البداية إبعاد الكلب ولكنه بدا لنا بشكل مريب، وكأنه قد نذر نفسه للفتك بها، وكأن بينهما ثأر.

كان يهاجمها في ضراوة وإصرار، وهي تدافع عن نفسها بطريقة ساذجة.

وعندما هم بعقرها للمرة الثانية، لم يتمالك راجي الشايب نفسه، وهوى بعصاه الغليظة على رأس الكلب وشجها، فضم الكلب ذيله بين ساقيه وأنطلق يعوي إلى المجهول.

كان المشهد مخيفًا ومثيرًا للاشمئزاز، ولكن كل ما همنا في هذه اللحظة هو إنقاذ تلك العجوز التي كانت تقف على قدميها بصعوبة من بين مخالبه وأنيابه. تلك العجوز التي تجاهلت جراحها، ومنقذيها، واندفعت بسرعة نحو الجوال الذي تناثرت محتوياته على الأرض الترابية، وسط نظراتنا المندهشة.

وبكل هدوء وكأنما لا يعنيها دمها النازف ولا وجودنا، جمعت الجماجم الأربعة التي تناثرت حولها، في كيسها الخيشي. وتركتنا دون كلمة شكر، وتوجهت بخطواتها البطيئة المتألمة صوب المقابر، دون أن تجيب على التساؤلات التي انهمرت عليها، من راجي الشايب الذي أخذ يتتبعها ويسألها كالمجذوب:

- «جماجم من هذه يا حاجة تهاني؟».

لا إجابة !!

- «جماجم من هذه يا حاجة تهاني؟».

لا إجابة !!

وأخيرًا نفذ صبره، وهو يهرول نحوها جاذبها من كم ردائها الأسود، وهو يقول:

- «جماجم من هذه أيتها اللعينة؟».

ولم يتوقف عن جذبها، إلا عندما أستدارت له، وحدجته بنظرة مخيفة جمدت الدماء في عروقه وعروقنا.

نظرة شيطانية مشتعلة شملتنا جميعا، وجعلتنا نتسمر في أماكننا ونحن ننظر نحوها في هلع، قبل أن نفر من أمامها، وكأنها الطاعون!

شيء مخيف لا ينتمي إلى عالمنا كان يطل علينا من هذه العيون الحادة.

شيء يهدد وينذر ويتوعد.

وكانت هذه هي البداية الحقيقية، ليكون كل هدفي في الحياة حينها أن أكشف سرها، وسر الجماجم.

وهذا جعل هالة مخيفة أخرى تحيط بها، وتصيبني بالتوتر كلما تذكرت نظراتها..

ولكنه الفراغ وحماس الشباب.

بالطبع جميعكم استنتجم ما قمت به بعد ذلك.

نعم ..إنه هو .. حماقة كل أبطال القصص بالزج بأنفسهم في المهالك.

ففي اليوم التالي، كان الفضول قد مزقني من الداخل، أنا المراهق

الشاب الذي حضر بنفسه، جنازة راجي الشايب، وبكاه بقلب منفطر، وهو يتوقع نفس المصير الأسود.

ألم أخبركم أنهم وجدوه في الصباح جثة هامدة في فراشه وعلى وجهه أعتى ملامح الخوف..

لم أخبركم !!

لقد عرفتم الآن.. وعرفتم مقدار خوفي وهلعي.

طبيب الوحدة الذي فحص الجثة ليستخرج تصريح الدفن، أقر في أوراقه أنه مات موتة طبيعية.

وهذا ما لم أقتنع به أبدًا، بعد أن وصف لي ابنه نظرات الهلع التي كانت ترتسم على وجهه، وصراخه الرهيب قبل موته، والكلمات التي لم ينفك يرددها:

- «أم الجماجم ..أم الجماجم».

لقد وقر بداخلي أنه لم يمت ميتة طبيعية، لقد قتل بطريقة ما لم يتوصل لها طبيب الوحدة الصحية.

ولكن ما هو الشيء الذي يمكن أن يثير فزع شخص قوي ومهاب، مثل راجي الشايب حتى الموت .

لم تكن هناك إجابة..

فقررت البحث عنها.

لذلك كنت هناك في جنح الظلام أتسلل إلى بيتها..

وليتني لم أفعل.

* * *

(2)

في تلك الليلة السوداء، كانت الريح تزأر بعنف، والأشجار تتمايل من شدة العاصفة، لا صوت يعلو فوق صوت هديرها، وصوت الأمطار التي تحولت إلى سيول هادرة، وأغرقت كل شيء فور أن وصلت إلى سور البيت المظلم.

لم تكن الأمطار وحدها هي الشيء المزعج في المكان، الظلام نفسه كان كثيفًا وثقيلًا بشكل أثار في جسدي قشعريرة رهيبة.. لدرجة أني شعرت أن الأسوار تمتد إلى مالانهاية، أو أنها مصنوعة من الظلام نفسه.

كما أن هناك طاقة سلبية رهيبة تحيط بالمكان ككل. وهذا جعل خوفي وترددي يتضاعفان، وشجاعتي تتبدد.. بل وجعلتني أتلفت حولي في ذعر، وأنا أشعر أن هناك من يراقبني ويتربص بي..

الأشجار من حول البيت جميعها يابسة ولا حياة فيها.. فكيف تنمو نباتات مثلها وسط هذا الجو الموبوء؟!.

كل شيء من حولي يخبرني أنني مراقب، وأن الاقتراب ممنوع.

حتى منظر البيت المتهالك المبني على الطراز القديم، لا يوحي بالحياة.. كل شيء فيه ميت وآيل للسقوط. وبرغم هذا أشعر أنه حصن منيع تحيط به هائلة نفسية مروعة..

هـذا البيـت لابـد وأنـه شـهد مـوت كثـير.. وأريقـت بداخلـه الدمـاء.. ويعبـث بداخلـه الـشر دون هـوادة.

بوابتـه الخشـبية الثقيلـة، تشـبه بوابـات القـلاع، خاصـة مـع تلـك الصفائـح المعدنيـة الصدئـة التـي اسـتخدمت لتزينـه، بالإضافـة إلى تلـك اليـد معدنيـة المصبوبـة عـلى هيئـة قبضـة مضمومـة، التـي تطـرق عـلى جـزء معـدني آخـر، ليـدوي الصـوت متضخـمًا في الداخـل.

البيـت نفسـه عبـارة عـن دوريـن مرتفعـين بشـكل كبـير، غارقـين في الظـلام لهـما نوافـذ عملاقـة بعضهـا مهشـم كعيـون مقلوعـة، وبعضهـا في طريقـه لذلـك، فلـن ينجـو شيء مـن هـذه العاصفـة الثائـرة..

خلـف السـور الـذي تسـلقته بصعوبـة مـع هطـول المطـر عليـه، وبامتـداد البوابـة الكبـيرة، رواق قصـير مسـقوف، مرصـوف بالحـصى المتـلازم، يقـود لبابـه الخشـبي المـوارب.

صـوت عـواء رهيـب لا أعـرف مصـدره جمـد الدمـاء في عروقـي، ولكنـي أخـبر نفـسي أنـه صـوت الريـح.

أقـف وسـط الأمطـار ارتجـف مـن الـبرد والخـوف، وبداخـلي شـعور المحكـوم عليـه بالاعـدام.

الباب الموارب يخبرني أن من بالداخل لا يأبهون بمن في الخارج.

وهذا أثار فزعي أكثر.

كنـت قـد قـررت أن أتسـلل مـن إحـدى نوافـذه الكثـيرة المحطمـة، التـي لم يعـد يعنـى بهـا أحـد، ولكـن البـاب المفتـوح قـصر عـلي مغامـرة الليلـة، خاصـة وأن الأمطـار أغرقـت ثيـابي، والـبرد بـدأ يـؤلم عظامـي.

أقتربت من الباب، في حذر.

صوت الرياح والأمطار يخفي صوت خطواتي، وبالتالي سيخفي عن أذنيها محاولة تسللي، وهذا شيء بث بعض الاطمئنان الزائف بداخلي، خاصة وأن حماسي قد فتر، وسكن في روعي الكثير من الخوف والرهبة بعد أن أوشكت على اقتحام عرين تهاني الغجرية ..

تهاني التي قتلت راجي الشايب، والذي أطلق عليها ذلك اللقب المخيف:

أم الجماجم.

فهل هي من تركت الباب مفتوحا؟ وهل تنتظرني بالداخل؟ وهل سيكون مصيري كمصير راجي الشايب؟

إنها تقرأ الطالع، وتتنبأ بالمستقبل.. فهل سيخفى عليها نبأ تسللي لعرينها؟!!

الأمر مخيف ويبعث على التوتر، ولكن حماقة الشباب وليست حماستهم تدفعني لتجاهل مخاوفي، والمضي قدمًا في مغامرة الليلة المحفوفة بالمخاطر.

أقترب من الباب أكثر، فأشم رائحة عفن وعطن ممتزجة برائحة الأمطار، وتلك الرائحة المخيفة التي تظلل عالمي.

رائحة الموت..

الظلام دامس بشكل مقبض خلف الباب، ولكني لن أتراجع بعد أن وصلت لهذه المرحلة.

رفض أبنوب القدوم معي وخوض مغامرة الليلة بعد أن وصلته

الرسالة كاملة بموت راجي الشايب، بل وحاول إقناعي بالعدول عن الأمر ولكني لم أستمع له.

لن أستطيع نعته بالجبن بالطبع، وأمنحه أنا كل الصلاحيات لنعتي بالأحمق.

إنني المهتم الوحيد الآن بسر الجماجم الأربعة التي كانت تحملها تهاني الغجرية في كيسها الخيشي.. فموت راجي الشايب وأد قصة الجماجم قبل أن تولد، وقطع ألسنة من أرادوا نشر هذه القصة في مهدها.

دفعت الباب فتحرك بسهولة برغم ثقل منظره..

شعور خبيث يجتاحني بأن الباب تحرك وحده، جعل جسدي يرتجف من الخوف.

أهز رأسي لأطرد الفكرة، فوقت الهلاوس هذا مبكرٌ، إنها على كل حال عجوز، وأنا شاب وافر الصحة، لا خطر هناك ..

وهنا تذكرت نظراتها الشيطانية المهددة!

وأيضا ما أخبرني به صديقي ابن راجي الشايب، عن عذاب وصراخ أبيه ونظرة الهلع التي أرتسمت على وجهه قبل الموت.. فغزت جسدي قشعريرة باردة، كادت تقنعني أخيرًا بالتراجع ..

وكادت، لأنني في اللحظة التالية، كنت قد عبرت الباب نحو الساحة الداخلية.

البرق يضيء المكان، فأرى على أثره الساحة ذات السقف المرتفع الذي يصل إلى خمسة أمتار، والتي تكوم أثاثها في عشوائية بجوار

الجدران، كما رأيت مجموعة من الأبواب الخشبية المغلقة التي غصت بالرسوم والنقوش والتعاويذ.

وبرغم إنقباض قلبي مما رأيت وفهمت، والغثيان الذي أصاب معدتي، هداني عقلي الوغد إلى الاقتراب من أحدها، والذي كان يتسرب من تحته ضوء خافت لا يمكن ملاحظته بسهولة..

قلبي يدق في عنف..

فالضوء لا يعني إلا شيئًا واحدًا.

إنها هنا، ومستيقظة.

ألوم نفسي على جبنها، فهي لن تترك البيت في مثل هذا الجو الذي يعصف بالشباب، فما بالي بعجوز في أرذل العمر.

البرق يضرب مجددًا.. فأنظر إلى الباب بخوف.. فأراه مفتوحًا وخلفه الظلال.

أتسمر في مكاني..

أهرش في رأسي.

أقرص يدي محاولا التذكر؛ هل كان الباب مفتوحًا أم مغلقًا قبل أن يغيب الضوء منذ قليل!.

طرراخ..

الباب الخارجي يغلق لأسجن في الداخل، دون أن يكون هناك من أغلقه.

الريح تفسير مريح، ولكنني لن أواصل حماقتي.. إنني في منزل ساحرة تمارس السحر السود، ولا تتحرك إلا بصحبة الجماجم.

صوت خطوات قادمة حولي من كل مكان ..

الخوف جمد أطرافي، والدماء التي في عروقي، فصار تنفسي أصعب.

وهنا قررت أن أهرب..عندما..

- «ألم تتعلم الدرس بعد يا يزيد.. ألم يكن موت راجي الشايب كافيًا لتكف عن ملاحقتي.. أأنت بهذه الحماقة؟!».

البرق يضرب من جديد..

فأجد وجه تهاني العجوز يكاد يلتصق بوجهي..

الخطوات ما زالت تأتي من كل مكان، وكأنها قرع رتيب للطبول.

لم تكن خطوات تهاني إذن..

فأي هول آخر يخفيه الظلام !!

أتراجع للخلف خطوتين، فأشعر بملمس يدها الثقيلة على كتفي..

ما الذي يحدث؟

كيف كانت أمامي، ثم أصبحت في لحظة واحدة خلفي؟

قرع الطبول المتوجس يتعالى ..

بل هو صوت خطوات..

نعم إنه صوت خطوات!!

ألمح على البعد الجسد المتوتر النحيل..

أرى وجهها المخيف ونظراتها المشتعلة في ظلال مصباح الكيروسين..

هذا البيت لم يعرف الكهرباء بعد..

أقول في توتر:

- « أنا لم ...».

لا أستطيع أن أجد فكرة أو حجة أسوقها لها، تبرر اقتحامي بيتها.

ثم إن عينيها..

يا إلهي.. أهو الظلام.. أم الخوف.. أم هو ضوء المصباح الكابي الذي يمنحها هذا السمت الشيطاني..

صوتها يغتال يقيني بكل شيء:

- «لمَ يا يزيد.. لمَ تتسل إلى بيتي.. لمَ تقتحم خصوصيتي.. لمَ تفسد عملي بوجودك هنا في هذا المكان؟.. إنك موصوم..وطالعك نحس.. ولكنه ليس مبررًا لما فعلت».

أتوتر ويجتاحني الاضطراب، وأنا أتعجب من كونها ملمة بقصة نحسي ووصمي، فأتحسس صدري لا إراديًا وأقول:

- « لم .. لم ..أتركيني أرحل ..فأمي صديقتك».

البرق يضرب من جديد، فأشاهدهم من حولي يقتربون في دائرة كاملة ..

يا إلهي.. أين زججت بنفسي؟!..

لابد وأنني قد مت وأنني في الجحيم، ومن أراهم هم زبانيته.

إن من أراهم يقتربون مني كيانات متجسدة في غاية البشاعة.. شيء قادم من حيث تسكن الشياطين في أعماق الجحيم.. لا أستطيع أن أصف هيئتهم، ولا أن أصف مدى الرعب الذي أشعر به.. إن تهاني شيطانة زنيمة لتستطيع استدعائهم، بل والتحكم فيهم.. وتوجيههم للفتك بي.

أنا أتفهه من كل هذا الهول الذي أشاهده..

لو توقف قلبي الآن فلن ألوم عليه..

إن عقلي قاصر عن احتواء كل ما أراه، فقط الملاحظة الوحيدة التي سجلها أنهم كائنات بلا رؤوس..

***

- «جماجم من هذه يا حاجة تهاني؟».

***

تتحرك تلك الكائنات الظلامية نحوي في إصرار..

تقترب من مكاني وكأنها تراني؛ لا أعرف كيف؟!.

خطواتها تقرع الأرض في قوة، وكأنها ترتدي قباقيب خشبية...

إني هالك.

أصرخ في تهاني طالبًا العون:

- «اتركيني، ولن أزعجك مجددًا».

عيناها تشتعلان بنيران حقيقية، هذه المرة وتقول:

- «لقد أفسدت كل شيء بحماقتك يا يزيد.. لو تركتك أنا لن يتركك هو.. لقد أفسدت كل شيء أيها الأحمق».

هو من؟

إنهم أربعة، وليس واحد..

أمازال الظلام يخفي خلفه المزيد من المصائب؟!!.

أنظر للكيانات المظلمة التي مازال عقلي عاجزًا عن استيعابها ووصفها، على ضوء البرق التالي...

هيئتهم التي بلا رؤوس تفزعني..

حركتهم البطيئة تثير خيالي..

الظلام يبدد إرادتي.

وفجأة يشتعل ضوء غامض في المكان..

المكان يشتعل بلون الدم ..

وبصوتها المفزع تردد تهاني الغجرية، في قوة كلمات غريبة ذات وقع رهيب على الأذن:

- « موزيان.. هبتكون .. أشعيال.. طهمكيل.. سد لا ينهار.. بشتنار.. موزياكال.. أبشوم.. نارو نار.. الوحى.. العجل.. الساعة.. الساعة.. الساعة».

قبل أن تصرخ في هلع:

- «الآن يا يزيد الآن..اهرب عليك اللعنة .. اهرب فلو وقعت في يده لانتهى كل شيء.. وانتهى أمري وأمرك.. لا تقف هكذا كالتمثال».

أربع جماجم تشتعل بداخلها النيران في فضاء المكان، وكأنما دبت فيها الحياة، تدور الجماجم المشتعلة حول رأس تهاني التي تصلب جسدها كالوتر، واشتعلت عيناها بنيران حقيقة، جعلتني أرمقها في ذهول.

مشهد الجماجم المشتعلة يدير رأسي، وصراخ رهيب يكاد يمزق أذني مع هدير البرق.. صوت تهاني يدوي مجددًا، بتعويذة مختلفة، فانتفض مع كلماتها، ويعود لي رشدي:

- « سردوب.. هاكتوب.. طريق.. طهكيل أمحي المكتوب.. باب شينول.. الحين .. الحين.. الحين.».

جسدي تجتاحه حرارة عالية، وكأن كلماتها نار تدفقت في شراييني، فتدفق الدم إلى عروقي، فزال تيبس أطرافي، وتحركت بسرعة نحو الباب الذي انفتح ببطء شديد، وكأن هناك قوة خفية تحاول إغلاقه مجددًا، وخلفي رأيت تلك الكيانات الظلامية تتحرك بصعوبة، وكأن هناك شيء خفي يكبلها، مما منحني الأسبقية كي أنجو بحياتي..

لم أفهم أي شيء مما حدث ..

فقط أدركت أن تلك العجوز ساعدتني، لا رغبة منها في نجاتي، ولكنها لم تكن تريدني في بيتها في هذا التوقيت بالذات.

فأي طقوس لعينة كانت تقوم بها؟.

الشيء الوحيد الذي أنا متأكد منه، أنني اخترت أسوأ الأوقات لأتسلل إلى بيتها.. وكدت أدفع حياتي ثمنًا لتهوري.

لابد وأن هذه الملعونة كانت تستحضر في هذا الوقت بالذات أحد شياطين العالم السفلي، والذي كان وجودي سيتسبب في افساد ما تسعى إليه لو حضر ووجدني.

ربما كان سيستحوذ على جسدي ويستخدمني في القضاء عليها..

أو سيرتوي من دمائي وتفقد سيطرتها عليه ..

لا شيء مستبعد..

إنها ملعونة ..

وأعمالها ملعونة مثلها ..

لابد وأن تلك الكيانات الظلامية التي بلا رؤوس لها علاقة بالجماجم الأربعة..

أربع كيانات بلا رؤوس ..

أربع جماجم..

الآن أدركت أن تهاني كانت مشعوذة أريبة ..استطاعت أن تخفي أسرارها لوقت طويل..

لقد جئت لأكشف أحد أسرارها، فعدت بألف علامة استفهام، ومعه خوف لن يفارقني ما دمت حيًا.

فهل ستنتهي الأمور عند هذه النقطة، أم مازال هناك عقاب قادم؟.

* * *

(3)

قضيت ليلة عصيبة لا محل لها من الإعراب في منزلنا، وكل ما حدث لي ببيت تلك الغجرية العجوز يتكرر أمامي بكامل تفاصيله، وردود فعله المخيفة، حتى انهار عقلي تمامًا، وتبعه جسدي، الذي عانى من الحمى الشديدة نتيجة مياه الأمطار التي أغرقتني، والتجربة المريعة التي مررت بها في تلك الليلة المظلمة.

وقضيت على إثرها أسبوع كامل في الفراش، أعاني من نوبات هذيان وصراخ لا تنتهي، وأنا أتخيل تلك المخلوقات الظلامية تقوم بنزع رأسي واستخدامها بدلا عن رؤوسها المفقودة.

وفي أحد تلك الكوابيس المزعجة رأيتهم يتبادلونها بأقدامهم، كما يفعل لاعبوا كرة القدم المحترفون.

ولكم أن تتخيلوا مقدار الألم مع كل ركلة.. ومقدار الفزع مع كل مرة أندفع فيها صوب إحدى أقدامهم الرهيبة..

لقد كدت أهوى إلى الدرك الأسفل نفسيًا، لولا وجود أمي بجواري.

والتي لم تتركني لحظة، بعنايتها ودعاءها، وقراءتها للقرآن حتى

تماثلَت للشفاء تمامًا، وبرغم ذلك بقيت في كنفها أيامًا أخرى -لم أعرف كيف أحصيها لتشابهها-أستمد منها الأمان ..

ومن يومها لم أقرب هذا البيت أو المقابر، أو أذكر قصة الجماجم الأربعة الموضوعة في كيسها الخيشي لأحد.

كان لدى تهاني الغجرية سر.. وأصبح هذا السر هو لعنتي، فلم أهتك ستره أبدًا.

وبعدها لم أرضخ ولو مرة واحدة لمحاولات أبي المستمرة، والتي لم تكن هينة في أحيان كثيرة، والتي كانت تنتهي بصفعي أو ركلي أو نعتي بأقذع الصفات التي لا تنتمي لعالم الرجولة، للعودة لمساعدته في مهنته التي ستجبرني على دخول المقابر التي لا تنقطع تهاني الغجرية عن زيارتها.

وهذا ما جعل أبي في النهاية يتخلى عن عناده، ويعتمد على شقيقي عبد الهادي اعتمادًا كليًا في مساعدته بعد أن يئس مني.

مررت بلياِلٍ سوداء، أكثر عتمة من ظلام القبر، كنت أنتظر في كل يوم ذلك الشيء المجهول الذي أقتنص حياة راجي الشايب، أو تلك الكيانات الظلامية التي بلا رؤوس، لتأتِ كي تفتك بي، ولم يحدث من هذا شيء، ولم أتحدث لأحد قط عن سر تهاني..

ولا عن جماجمها..

ولم أشعر بالأمان بعدها قط، ولكني نسيت أو تناسيت، فمرور الأيام أكبر مخدر، وماحي للذاكرة في الكون كله.

كل شيء ظل على حاله كما كان قبل زيارتي المشئومة لبيتها، ورؤيتي لتلك الشياطين التي كانت تتعامل معها..

فقط ما تغير هو أنا ..

لم أعد كما كنت قط..

لقد كانت تجربة عمري الأسوأ، وتعلمت خلالها كيف لا أزج نفسي في ما لا يعنيني.. وكيف أن الفضول قاتل..

ولكن ..

بعد عام كامل.. قابلتها صدفة، هممت بالعدو من أمامها، ولكن عقلي هداني أن أتعامل بهدوء وحكمة، كي لا استفزها أو أذكرها لو كانت قد نسيتني، وكان هذا أفضل ما قمت به وقتها، لأنها عندما رأتني منحتني نظرة خاوية.

مجرد نظرة خاوية ..

ثم تجاوزتني وكأنها لا تعرفني أو تضمر لي شرًا، وهي تحمل كيسها الخيشي الثقيل متوجهة صوب المقابر..

شيء ما تغير فيها..

ربما قلت تجاعيدها..

أو ازدادت سرعة خطواتها..

أو اكتسبت قوة ما، أو شبابًا أوفر.

أو أصبحت أكثر شرودًا، ونظراتها أقل حدة..

أو كل ما سبق، فكل نظرة إليها تمنحك تفصيلة جديدة غير مريحة، تزيد من كراهيتك لها أو نفورك منها.

تأملتها من ظهرها حتى توارت في المنعطف التالي، ثم تنفست الصعداء، وقررت العودة إلى الحياة، ووأد خوفي..

ونمت هـذه الليلـة قرير العـين، فلـم تسـتطع الكائنـات الظلاميـة في كابـوس هـذه الليلـة أن تنتـزع رأسي.

ولكني برغم هذا لم أعد لممارسة مهنتنا الموصومة، إلا بعد وفاة أبي.

وهـا أنـا اليـوم بعـد مـضي عـشر سنوات. تقريبًا في نفـس التوقيـت أو في توقيـت مقـارب، أشـاهد نفـس العاصفـة الغاضبـة، التـي كشـف لي برقهـا ذات يـوم كئيـب عـن وجـود الكيانـات الظلاميـة الأربعـة التـي لا رؤوس لهـا، عندمـا تسـللت إلى بيـت تهـاني الغجريـة.

أنـا موقـن أنهـا نفـس العاصفـة الموسـمية وقـد عـادت بـكل قوتهـا، لتطلـق أمطارهـا الغزيـرة على المقابـر فتهدمهـا، لتكشـف سر تهـاني المخيـف، ولأى مـدى وصـل غيهـا وجبروتهـا.

في هـذا اليـوم الرهيـب، وقـف عمـدة قريتنـا، وشـيخ غفـره ورجالـه أمـام القـبر المهـدم، والأمطـار تغـرق كل شيء، والـبرق والرعـد يتبـادلان تمزيـق السـماء، والريـاح تـكاد تقتلعنـا اقتلاعًـا مـن فـوق الأرض الموحلـة.. لدرجـة أن الرجـال استغنوا عـن المظـلات التـي كانـت تنقلـب لأعـلى، مـن هـول العاصفـة.

قبر عائلة النوصري..

هذ ما كان مكتوبًا على جدار القبر الأمامي بدهان أسود حال لونه.

قـبر كان سيشـبه كل تلـك القبـور المتـضررة ، لـولا مـا لفظـه مـن أحشـائه..

شيء رهيب ..

شيء يفطر القلوب وينتزع الدموع من قلب أعتى الرجال.

جثتـان حديثتـان، صغيرتـا الحجـم.. ممزقتـان ومشـوهتان، لفـت كل واحـدة منهـما، بشـكل عشـوائي في مئـزر كتـاني مهـترىء قاتـم اللـون، يكشـف أكثـر مما يسـتر، تلوثـه دمـاء جافـة أظهرهـا المطـر، والجثتـان كانتـا بـلا رؤوس.

أحـد الرجـال يقـيء مـا في جوفـه، وهـو يحـاول ألا يلـوث ثيابـه التـي تعبـث بهـا الريـح بعنـف، ويقـول في ذهـول، وهـو يمسـح القـيء المختلـط بمـاء المطـر:

- « يا إلهي الرحيم.. جثث من هذه؟!».

صـوت تبـدده الريـح يقـول، وصاحبـه يشـير إلى رأسـين ملطخـين بالوحـل:

- « إنهـما جثتـا حنـين وأمجـد ابنـيّ عبـد المجيـد الغـزولي، مـن الكافـر الـذي فعـل هـذه الفعلـة؟ ».

شيخ الغفر يقبض على بندقيته ويصرخ:

- « هل أنت متأكد؟».

الجنـون أصـاب الجميـع، خاصـة أن الجثـث ولم تكـن هنـاك وحدهـا، بـل ظهـرت للعيـان العديـد مـن الهيـاكل العظميـة المهشـمة صغـيرة الحجـم، غارقـة في الوحـل والميـاه، تـبرز بعضهـا مـن أسـفل الجثتـين. بجوارهـا العديـد مـن الجماجـم، في مراحـل التحلـل المختلفـة، وبعضهـا صـار جماجـم فارغـة ترمقنـا في غضـب وتطلـب الانتقـام ..

لم يخفـى عـلى أحـد مـن الناظريـن المصدومـين، كونهـا جماجـم وهيـاكل عظميـة تعـود لأطفـال في مراحـل عمريـة مختلفـة.

مشهد الجثث والهياكل العظمية أثار ذكريات مخيفة لدى الحاضرين، وإن حل لغز اختفاء الأطفال خلال الثلاث سنوات الأخيرة.

ما هزنا أكثر رأسان صغيرتان، لإحداهما ضفائر مقصوصة، والأخرى ذات شعر قصير أحمر.. كانتا بجوار الجثتين، إحداهما مدفونة في الطين والأخرى مقلوبة على وجهها، وعندما قام الرجال بالكشف عنهما.. سادت موجة غضب هائلة في القلوب..

فالعيون كانت مفقوئة، وتم إحراق المحاجر بطريقة عشوائية، والوجه كان غارقًا بالنقوش والتعاويذ المنحوتة بنصل حاد محمى أحرق البشرة بشكل بشع، وترك أثره هناك.

وبرغم أن المحاجر فارغة، ولكنك تشعر أنهما تنظران نحونا في هلع ودهشة، وكأنهما تتسائلان عما فعلاه ليموتا بمثل هذه الطريقة البشعة.

قلوبنا انخلعت، وعقولنا تاهت مما نرى، ونحن نتحرك في ذهول وصعوبة مع اشتداد حدة الريح والأمطار، لا نبالي باتساخ ثيابنا، أو غوص أقدامنا في التربة الطينية اللزجة والوحل.

صوت يجيب متأخرًا عن السؤال الذي طرحه شيخ الغفر:

- « إنهما هما دون شك.. ليرحمك الله يا عبد المجيد».

حمدت الله كثيرًا أن الأب لم يكن موجودًا في هذا التوقيت، وإلا للحق بهما من الصدمة، ومن بشاعة المشهد.

وبدون وعي صرخ أحد الرجال ..

- « الموت للغجرية».

وردد الرجال من خلفه:

- « الموت للغجرية».

وفي لحظة واحدة استعدت أحداث غياب الأطفال خلال العام الماضي، والذي يسبقه، وأدركت أن من نطق بهذه الجملة كان أحد الآباء المكلومين.

وخلال دقائق، كان هناك جمع رهيب من الرجال الغاضبين الذين ترسخت في عقولهم فكرة الانتقام، يتوجهون بعزيمة وإصرار نحو بيت الغجرية.

ربما هي المرة الأولى التي يتوحد فيها رجال القرية على شيء بمثل هذه القسوة والشر، ولهم كل العذر في هذا.. فمشهد الجثث الممزقة، والوجوه المشوهة لأطفال عبد المجيد الغزولي، رسخ أمام أعينهم مصير أبنائهم القادم.

كما أن حالة الجثث والتعذيب الذي تعرضوا له قبل موتهم أشعل بداخلهم الرغبة في القصاص ومعاقبة الجاني، فالضحايا على كل حال أطفال أبرياء، وما حدث معهم تصرف حقير خالي من الانسانية والرحمة..

لو رأيت وجوه الرجال بعد أن انتصف الطريق، وتوقفت الأمطار الهادرة، عن الهطول، وأضيئت المشاعل والمصابيح، وكل منهم يحمل السلاح الذي استطاعت يده الحصول عليه في هذا التوقيت..

لأدركت أن التعقل قد تلاشى تمامًا من المشهد، وأن الجنون كان هو السيد المسيطر، و الشيء المخيف أكثر أن على رأسهم العمدة وشيخ غفره ورجاله، ممثلوا القانون..

هل رأيت فيلم شيء من الخوف ؟

هل رأيت الحشود الغاضبة ؟

الأمر يشبهه تمامًا!

ولكنها هنا حشود قاتلة، لم تنتظر المحاكمة، بل أصدرت الحكم..

حكمٌ بالاعدام ..

إعدام الغجرية .

وأصبح حكمًا واجب النفاذ في الحال..

لم تكن رحلتنا إلى بيتها هينة، مع الأرض الطينية الزلقة، والجو العاصف الذي لم تخفت حدته برغم توقف الأمطار، ولكن القلوب كانت تستعر بالغضب، والأرواح وصلت إلى الحلقوم ..

النيران التي في الصدور هزمت البرد.

والغضب كان يكفي لزحزحة الجبال..

وأخيرًا وصلنا إلى البيت الذي لم ترأف العاصفة بجدرانه، وهدمت جانبه الغربي، فلم يحتَجِ الرجال الغاضبين إلى بذل أي مجهود لعبوره وإحاطة البيت من جميع الاتجاهات.

وفي لحظة ساد الصمت المطبق..

فالظلام المحيط بالبيت كان مخيفًا وموترًا للأعصاب.

شعرت وشعر الرجال معي بتلك الطاقة السلبية الرهيبة التي تحيط بالمكان..

دقيقة كاملة لم ينبس أي من الرجال، قبل أن يستعيد أحدهم غضبه وصوته ويصرخ، قائلًا:

- « اخرجي أيتها الغجرية.. اخرجي أيتها اللعينة».

الرياح تزأر من حولنا، والبرد ينخر في عظامنا، وبرغم ذلك شاركه العديدين في الصراخ، كما أن بعض الشباب المتحمس، بدأ يستخدم عتلة حديدية لإغتصاب قفل الباب الخشبي السميك.

وكان من الواضح أنهم سيحتاجون وقتًا إضافيًا فالقفل كان قديمًا، وصنع من قبل حداد ماهر، ولكنهم استمروا في المحاولة ..

كل مخاوفي عادت لي مع رؤية البيت..

ذكرى الكيانات الظلامية التي بلا رؤوس تجسدت أمامي ..

وبداخلي أدركت أنها الخطر لا نحن..

الصراخ والنداءات والضجيج لم تنقطع لعشر دقائق كاملة، لم تنجح فيها محاولات الشباب لفتح الباب، وبدأ بعض المتطوعين في استخدام أكتافهم لمحاولة النيل منه دون جدوى..

ثم فجأة أضاء البيت كله ضوء ساطع ينبعث من اللامكان..

ومن نافذة الدور العلوي ظهرت تهاني الغجرية والرياح تعبث بعباءتها السوداء، وشعرها يتناثر حولها في مشهد مرعب ..

لا أعرف لماذا وقتها تذكرت النداهة؟.

وساد الصمت.

شيء ما في منظرها كان خارقًا للطبيعة، فأثار الهلع في قلوبنا، وجعل الصمت يطول، قبل أن تقطعه قائلة دون خوف أو وجل:

- « انصرفوا.. لماذا تزعجونني الآن؟».

صوتها كان يتردد وخلفه صدى عجيب أوقع الرهبة القلوب، عندما أتى صوت العمدة قائلًا:

- « اخرجي أيتها اللعينة .. لن تنجي من جرائمك و..».

قاطعه صوت عبد المجيد الغزولي الذي انشقت عنه الأرض بعد أن وصله الخبر، وهو يحمل في يده بندقيته العتيقة، قائلًا:

- «ستموتين أيها اللعينة ستموتين.. ماذنب أطفالي الصغار.. ماذنبهم؟!!».

قالها مقرنا كلامه بتصويب بندقيته نحوها وأطلقها.

صوت الرصاصة كان كالرعد ..

تصويبه كان دقيقًا إلى أقصى مدى..

وأصابت الرصاصة صدر تهاني، ثم ارتدت عنه، وسقطت وسط بحيرة من مياه الأمطار، وسط شهقات الجميع، في حين قالت تهاني بصوت كالرعد:

- « انصرفوا ما دمتم قادرين.. أو ستلحقون بهؤلاء الأطفال المغدورين».

لم ينصت عبد المجيد الغزولي لحديثها..

بل نظر إليها بكراهية مخيفة ثم أطلق بندقيته ..

ثم أعاد حشوها وأطلقها..

ثم تبعه كل رجال العمدة ..

كل الرصاصات كانت تصيبها ثم ترتد عنها، وهذا جعل الخوف يتسرب للقلوب أكثر وأكثر، حتى دوى من بينهم صوت يقول :

- « أحرقوا هذه الساحرة .. أحرقوها».

عشرات المشاعل انطلقت نحو المنزل..

إلا أنها كانت تصطدم بحائط غير مرئي وتسقط وسط بحيرات مياه الأمطار الآسنة، لتصدر صوت احتضارها وتنطفيء.

وقف الرجال عاجزين عن الفعل، وتهاني ترمقهم في سخرية، عندما دوى صوت أحد الشباب قائلًا :

- « لقد نجحنا.. نجحنا في فتح الباب».

ظهر التردد على وجه الرجال للحظة، ثم اندفعوا ببنادقهم المتحفزة، وبأسلحتهم البدائية مهتدين بالضوء الغامض الصادر من المنزل، وعندما احتوتهم جميعا الساحة الداخلية ساد الظلام.. وبدأ صوت الأقدام الذي يشبه قرع الطبول يعلو في المكان..

لقد جرفني الحماس ودخلت مع الرجال.

لقد نسيت للحظة وجود تلك الكائنات الظلامية المفزعة..

وعندما هممت بالعدو للخروج من الباب، وسط التخبط الذي ساد بين الرجال، سمعت الصوت المخيف..

طرراخ..

الباب أُغلق من تلقاء نفسه، وحبسنا جميعا بداخل الساحة الداخلية..

ثم عاد الضوء مرة أخرى ..

وبدأت الصرخات..

هذه المرة كان الضوء ينتج من أربع جماجم كانت معلقة في فضاء الساحة، تدور بشكل سريع، وتعلوا وتهبط في نسق عشوائي، لتغمر الساحة من أعلى لأسفل بالضياء في محاولة منها لتبديد الظلام.

بينما الصرخات كانت من الرجال عندما شاهدوا تلك الكيانات الظلامية تتحرك نحوهم، وفي يد كل منهم منجل حصاد حاد..

منظر الكيانات المروع، أصاب الرجال بموجة من الهلع.. لدرجة أن بعضهم بال على نفسه من الفزع، وأحد الرجال تكور على نفسه، وهو يصرخ:

- « لا أريد أن أموت.. لا أريد أن أموت».

ولحظتها أدركت أن تلك الغجرية اللعينة تنفذ تهديدها، دون أن يهتز لها جفن..

وفي اللحظة التالية ..

أنتشرت أدخنة البارود الحارقة ..

الرجال يطلقون رصاصاتهم في سخاء.. دون جدوى ..

تلك الكيانات الوحشية تتقدم نحونا ببطء واثق..

وعندما شق المنجل الأول بطن خليل مطر مدرس التاريخ بقريتنا، جاءت لرأسي الفكرة ..

فصرخت بها كالمجذوب ..

الجماجم ..

الجماجم ..

وفي لحظة واحدة استدارات فوهات البنادق نحو الجماجم ..

وفي خلال ثوان معدودة سحقتها الطلقات، برغم حركتها السريعة.

ولكن قبلها بأجزاء من الثانية، كان قد سقط خمسة من الرجال بفعل المناجل الحادة التي حصدت أرواحهم حصدًا.. قبل أن تسقط

تلـك الكيانـات الظلاميـة القاتلـة، متكومـة عـلى الأرض وسـط الظـلام كأكيـاس سـوداء فارغـة.. لتشـتعل النـيران في كل شيء مـن حولنـا ونسـمع الصـوت الرهيـب يقـول في جشـع:

- « أنتِ لي ..أنتِ لي».

وبعدهـا شـاهدنا السـقف يتفجـر وكأنـما أصابتـه دانـة مدفـع، وجسـد تهـاني الغجريـة يندفـع مـن خلالـه بسرعـة الصـاروخ، ليصطـدم بـالأرض بعنـف، وفوقهـا كائـن رهيـب يشـبه كـرة مـن الشـعر والأهـداب.. وقـد بـدأ في تمزيـق أطرافهـا، وهـي تـصرخ في هلـع.

كيف ظلت حية بعد أن مزق أطرافها الأربعة؟

حـاول الرجـال وسـط النـيران المسـتعرة فتـح البـاب، فاسـتجاب لهـم وكأن سـحر الغجريـة مـن كان يمنعهـم عـن فتحـه..

وخرجوا جميعا إلا عبد المجيد الغزولي..

الـذي ظهـر في عينيـه التـي انعكسـت عليهـا ألسنة اللهـب الجنـون، وهـو يحشـو بندقيتـه، ويتجاهـل تمامًـا وجـود هـذا الكائـن الظلامـي الـذي أفـزع كل رجـال القريـة..

هـذا المشـهد هـو مـا جعلنـي وبعـض الرجـال نتوقـف عـن رحلـة الهرب، ونفتـح عيوننـا عـن أخرهـا في ذهـول، ونحـن نتابـع تلـك المواجهـة الرهيبة.

كان الكائـن يجثـم فـوق جسـد الغجريـة، وأهدابـه تخـترق خلاياهـا، وهـي تـصرخ، وكأنهـا تشـوى في نـار الجحيـم.

ثـم شـاهدنا عبـد المجيـد يقـف عنـد رأسـها، ويطلـق رصاصـة عـلى عينهـا اليمنـى ويقـول :

- «هذه من أجل حنين».

ثم يطلق الرصاصة على العين اليسرى ويقول في هيستريا:

- «وهذه من أجل أمجد».

قبل أن يطيح به ذلك الكائن المخيف نحونا، بعد أن أصابته ممساته في صدره، ومزقت وجهه، فتجمعنا حوله وحملناه، وعدونا به خارج البيت الذي بدأ سقفه في التهاوي من شدة اللهب، وعبد المجيد الغزولي يصرخ في جنون، والدماء تغرق وجهه:

- «لقد ثأرت لهما ..ثأرت لهما .. ثأرت لأمجد وحنين».

قبل أن تنتابه ثورة بكاء فيقول:

- «ولكنهما لن يعودا.. لن يعودا».

وقفنا جميعا حول البيت، نشاهد احتراقه وتهاويه، ولم تمطر السماء حينها ولو قطرة واحدة، وكأنها كانت تشاركنا غضبنا..

ولدقيقة كاملة سمعنا صرخات تهاني..

وتعجبنا أنها لم تمت مباشرة من رصاصتي عبد المجيد الغزولي، ولا من السقوط، ولا من من تمزيق الكائن لها..

ولكنها كانت تستحق العذاب..

وتستحق نهايتها..

صرخة أخيرة من تهاني ..

ثم ضوء ساطع غمر المكان ..

وبعدها أخذت أساسات البيت تتداعى، وجدرانه تتشقق ثم تتفجر

في قـوة، وكأنـما تهشـمها مطـارق خفيـة هائلـة الحجـم، قبـل أن تنخسـف الأرض مـن تحتـه، ويتحـول البيـت في لحظـة واحـدة لكومـة مـن الـركام والرمـاد المتطايـر، تتصاعـد مـن أنقاضـه الأدخنـة.

ودفنت تحت الأنقاض، جثث الأموات، والمصابين.

وظلت قلوبنا تنبض بالهلع بعدها.

ونحـن نتأمـل كل الخـراب الواقـع بأعـين جاحظـة، لم تصـدق لحظـة واحـدة نجاتنـا مـن هـذا الهـول.

* * *

(واحد+واحد-واحد)

باقي واحد

وهو أبي؟؟

باقي؟أين؟

أين أبي؟!

« أفكار جنونية في دفتر هاملت»
نجيب سرور

استحواذ

(1)

بعـد أن تسـاوى البيـت بـالأرض تمامًـا، وانطفئـت النـيران، واسـتعنا برجـال الحمايـة المدنيـة مـن المركـز المجـاور، اسـتخلصنا بصعوبـة بقايـا الرجـال، الذيـن دفعـوا حياتهـم مـن أجـل القضـاء عـلى شر تهـاني، التـي لم يكـن هنـاك أي أثـر لجثتهـا ولا لذلـك المخلـوق الجهنمـي الـذي هاجمهـا، ولا للكيانـات الظلاميـة التـي بـلا رؤوس.

وقـرر الرجـال، وعـلى رأسـهم العمـدة، عـدم الحديـث في هـذا الموضـوع مجـددًا، كـي لا توصـم قريتهـم باللعنـة، وكـي لا تُصنـع أسـطورة يسـتغلها البعـض ضدهـم، فالانتخابات قادمـة، ودائرتهـم تهـم بعـض رجـال الأعمال ذوي النفـوذ، وتحملـت الأمطـار والعاصفـة وزر كل شيء.

الحقيقة أنهم كانوا خائفين ..

جميعهم كانوا خائفين، وأنا على رأسهم..

عـدم وجـود جثـة لتهـاني الغجريـة.. أو لأي مـن تلـك المخلوقـات الشـيطانية، كان يوحـي بـأن الأمـر لم ينتـهِ..

من مثلهم قد يعود في أية لحظة..

لقد عاش رجال القرية تجربة عمرهم..

والأسوأ أنه لم يعد أحد يشعر بالأمان ..

ولكنهم كما يقولون، الأيام تمضي، والحزن يخفت، والخوف يضعفه الاعتياد و مرور الزمن.

وعدت أنا لحياتي الآمنة بين الموتى والمقابر، أنتظر ما تخبئه لي الأيام.

شقيقي عبد الهادي، تجاوز محنة بتر يده، بعد أن أستعاض عنها بيد خشبية مخيفة الشكل، تشبه يد التماثيل العتيقة، ولكنها كانت مفيدة له دون شك، وإن لم أحب اللقب الذي أطلقه عليه الأطفال في قريتنا، ولكنه ألتصق به على كل حال، وهذا اللقب السخيف كان (أبو دراع).

لن أحكي لكم عن أيامه الأولى بعد فقد ذراعه من أسفل المرفق، ولا هلاوس الطرف الشبحي التي يمر بها كل من فقد أحد أطرافه.

فقط أخبركم أن الأمر مر على خير، ليس خيرًا كاملًا، ولكن يكفي أنه بيننا، يحيا ويتنفس ويقوم بدور الأب.

وبعد عدة أشهر من الفاجعة التي بدأتها العاصفة، والتي ختمتها تهاني الغجرية، كنت على موعد أسود مع المرآة.

المرآة مخيفة، ربما لأنها تعكس صورنا، ونادرًا ما تجد إنسانًا يحب نفسه، أو انعكاسه..

والمرآة في الثقافات الأخرى كما قرأت.. بوابة على عالم مخيف ومظلم، وبعضها ثغرة على عالم الشياطين، والبعض يعتقد أنها تحبس الأرواح بداخلها ..

لا خير يرتبط أبدًا بالمرآة .

في العصر الفيكتوري، كانت تُغطى المرايا لدى وفاة أي شخص وقبل جنازته حتى لا تُحتجز روحه في إحداها،

وقـد انتـشرت هـذه العـادة مـن إنجلـترا إلى الكثـير مـن أنحـاء العـالم بـما فيهـا إسـكتلندا وأمـيركا والصـين ومدغشـقر والقـرم وبومبـاي في الهنـد، ومـازال اليهـود متمسـكين بهـذه العـادة حتـى يومنـا هـذا.

مـاري الدمويـة.. تظهـر لـو رددت اسـمها ثـلاث مـرات أمـام المـرآة، وتفقـأ عيـون مـن يسـتدعيها قبـل أن تفتـك بـه ..

ميدوسـا التـي كانـت لعنتهـا بـأن تحـول البـشر لحجـر بمجـرد أن تنظـر في عيونهـم، لم تهزمهـا إلا المـرآة.

اسـتخدمت السـاحرات في ثيسـالي في القـرن الثالـث الميـلادي المرايـا السـحرية، إذ كتبـن عليهـا نبوءاتهـن بالدمـاء. كـما اسـتخدمها العرّافـون والمتنبئـون الذيـن كانـوا يقـرأون المـاضي والحـاضر والمسـتقبل، في أعمالهـم.

وكانـت مرايـا قبائـل الأزتيـك تصنـع مـن الزجـاج الـبركاني الـذي كانـوا يعتقـدون أنـه مرتبـط بـ»تيزكاتليبـوكا»، الـذي يترجـم اسـمه إلى «الزجـاج المدخـن»، وهـو إلـه الليـل الـذي اسـتخدم المرايـا للعبـور بـين هـذا العـالم والعـالم السـفلي..

المرايا عالم مخيف..

لنبدأ القصة من البداية ..

عندمـا يـأتي لذهنـك لفـظ قريـة، فأنـت تتخيـل الحقـول والبيـوت المصنوعـة مـن الطـوب اللبـن، والمـواشي والفلاحـين وشـاي العصـاري عـلى الراكيـة، والجاموسـة المعصوبـة العينـان التـي تديـر السـاقية.

وهذا كان شكل قريتنا بالفعل، قبل عدة عقود.

لذلـك لـن تصـدق، وأنـت تسـير في شـوارع قريتنـا المعبـدة، والتـي كانـت

منذ فترة بسيطة أراض زراعية خصبة، تجود بالخيرات والثمار، أن هذه الفيلل والبيوت شديدة الأناقة والثراء في بلدتنا.

إن الأمر ليس لغزًا لو عرفتم السبب، فالعائدون من إيطاليا غيرو في التركيبة الاجتماعية والطبقية للقرية.

كم الأموال التي حصلوا عليها في هذا التوقيت، صنع من قريتنا مدينة مصغرة، لن تتخيل وجودها عند ذكر كلمة قرية ..

هاشم المنشاوي كان أب لخمسة من الشباب المغتربين، تخيل أن مغترب واحد قادر على امتلاك فيلا وعدة سيارات فارهة، ورصيد متضخم في البنك، من عمله بتلك البلدة التي صارت حلم جميع الشباب.

فما بالكم بأب لديه خمسة من المغتربين اللذين يدينون له بالولاء..

هل تخيلت كم الثراء؟

تخيل معي بعدها منظر الفيلا أو السرايا التي يعيشون فيها.

كم البزخ والإسراف، سيجعلك تعتقد أن صاحب هذا القصر المنيف تاجر مخدرات عتيد، أو رجل المافيا في الشرق الأوسط..

إن كم التحف الموجودة بداخله شيء عجيب، شيء لا يتوافق مع فلاح لا يفك الخط، ولم ينل أي قدر من التعليم، ولم يحفظ إلا بعض سور القرآن في الكُتّاب يصلي بها الآن.

ولكن النقود التي تشتري كل شيء كرست لهم مهندس ديكور إيطالي، تعرف عليه الابن الأكبر، فأشرف على القصر وجعله تحفة معمارية لا مثيل لها، وزوده بعدد من التماثيل الأثرية والمرايا التي تعود لعصر المماليك.

عندمـا تـوفى هاشـم المنشـاوي، دخلنـا نحـن مغـارة عـلي بابـا هـذه، وهالنـا كـم الثـراء الـذي كنـا نسـمع عنـه.

لم يكن الوقت مناسبًا للحسد ..

ولا الظرف القائم..

ولكن شقيقي عبد الهادي قال في انبهار واضح:

- «لا أعتقـد أنـه في القـصر الجمهـوري نفسـه، توجـد مثـل هـذه التحـف».

تأملـت الغرفـة شـديدة الاتسـاع والاناقـة، والتـي كان يرقـد فيهـا الفقيـد بجسـده البديـن، والتـي جعلهـا التكييـف البـارد كالثلاجـة، وتوقفـت عنـد المـرآة العملاقـة ذات الإطـار المذهـب، والتـي نقـش عـلى حوافهـا كلـمات بلغـة أجهلهـا، كانـت تلتـف حـول بعضهـا البعـض، لتصنـع وجهًـا غريبًـا، وقـر في قلبـي أنـه للشـيطان.

استعذت بالله من الشيطان الرجيم، وأنا أنظر نحوها بتوجس.

في هذه المرآة شيء غير طبيعي..

لقـد صرت أمتلـك تلـك الحاسـة المخيفـة، التـي أصبحـت تخبرني دائـمًا بـأن القـادم أسـوأ.

طالعي نحس كما أخبرتني تهاني، وكما أعرف منذ زمن..

وهـذه المـرآة لا أرتـاح لوجودهـا بقـربي، ولكـن ليـس بيـدي أن أطلـب منهـم نقـل جثـة الفقيـد، وتغسـيلها في مـكان آخـر..

إن هذا نوع من الوقاحة لم تصل حماقتي لممارستها بعد.

بدأنـا في إجـراءات تغسـيل الجثـة، عندمـا رأيـت عبـد الهـادي ينتصـب،

ثـم يدعـك عينـه بيـده السـليمة، قبـل أن يقـف متسـمرًا، ناظـرا باتجاهـي الـذي هـو نفسـه اتجـاه المـرآة.

في نفـس اللحظـة كانـت نـوارة قـد عـبرت إلى المـكان، وهـي تنظـر للميـت العـاري، وقبـل أن تسـأل سـؤالها المعتـاد:

- «هل ذهب؟»

وكأنهـا لم تعتـد بعـد على فعـل المـوت، أشـار عبـد الهـادي بيـده السـليمة إلى المـرآة، وقـال وصوتـه يتلجلـج مـن الصدمـة:

- «هل ترى ما أراه؟».

لم أنظر إلى ما يشير إليه، بل كنت أرمقه في دهشة، وسألته مندهشًا:

- «هل ترى نوارة؟».

نظر نحوي، وكأنه ينظر إلى مخبول وقال في غضب:

- «انظر خلفك..ألا تراه؟».

استدرت بسرعة وأنا أتسائل في قلق:

- «وما الذي سأر...».

وأكمـل هـو دون أن يبـالي بسـؤالي، وقـد ظهـرت حـيرة ممزوجـة بخـوف مبهـم في حديثـه:

- «الشيء الموجود في المرآة، ألا تراه؟!!».

نظـرت إلى حيـث يشـير، فرأيـت المـرآة أمامـي ينعكـس فيهـا صـورة عبـد الهـادي وصـورتي، ولا تظهـر عليهـا صـورة نـوارة، وفي منتصـف المـرآة كان هنـاك ظـل عجيـب يتحـرك بطريقـة عصبيـة وكأنـه يحـاول العبـور مـن خلالهـا.

ووقف شعر رأسي.. فنظرت إلى نوارة نظرة معناها:

هل ترين ما أراه ؟..

نظرت مجددًا لحركة الظل الموجود عبر المرآة، و قالت:

- «أي شيء لعين هو؟».

وساعتها ..

نظرت للمرآة بذهول..

ورددت على سؤال شقيقي عبد الهادي، وقلت في حيرة مماثلة:

- « الـ .. الـ الانعكاس.. نعم أراه».

وشهق شقيقي بعد أن نال التأكيد الذي لم يرغب به.

وفجأة قالت نوارة:

- «انظر خلفك».

إلتفت لأنظر فتبعني شقيقي عبد الهادي، في حين أضافت نوارة قائلة:

- «إنه يخرج من المرآة».

ودون مقدمات انقطع التيار الكهربائي.

وكانت ليلة سوداء.

* * *

(2)

لم يطُل الظلام كثيرًا لأن كشافات الطوارئ عملت على الفور، وليتها لم تعمل، فقد رأينا بأعيننا التي تكاد تغادر محاجرها، ذلك الشيء وهو يخرج من المرآة، ويقترب من الجثمان العاري الممدد، الذي قام عبد الهادي بستره على الفور، بقطعة قماش كانت أمامه، وكأنه يخشى أن يطلع هذا الشيء المخيف على عورته، أو يدنسه..

ردة فعل غريبة لم أستوعبها من شقيقي، ولكنه برغم عدم كونه قارىء نهم مثلي، إلا أن له معتقداته الخاصة..

وكأنه ليس على الشيء القادم من المرآة، أن يلمس جسد الميت مباشرة.. حتى لو كان هو جسده قبل الموت.

نظرت لنوارة مستفسرًا.. فبدا على وجهها الجهل والفزع..

إنها هي الأخرى خائفة، أو تقدر الخطر الكبير الذي نواجهه.. ولم يكن هذا جيدًا لي ..

عدت للظل ببصري، فهالني ما يحدث له، كان كيانه يتذبذب فيظهر ويختفي بطريقة غريبة، وكأنه عاجز عن التواجد في عالمنا، قبل أن يتلاشى دفعة واحدة لدرجة أني أعتقدت أني توهمت رؤيته، وكان

هـذا في نفـس اللحظـة التـي دخـل فيهـا، عبـد المنعـم ابـن الفقيـد الأكـبر يحمـل في يـده مصبـاح يعمـل بالبطاريـة شـديد الإضـاءة، وكان يتحـدث في غضـب عـن انفجـار محـول الكهربـاء الرئيـسي للبلـدة، وعـن تلـف مولـد الكهربـاء الإضـافي الخـاص بالمنـزل، ثـم تسـمر في مكانـه وقـد ظهـر الهلـع عـلى وجهـه..

حسبت في البدايـة أنـه رأى الـشيء الـذي خـرج مـن المـرآة قبـل إختفائـه، ولكنـه كان ينظـر للمـرآة التـي كانـت تمـوج في الظـلام، وكأنهـا تحولـت لدوامـة عميقـة أو لثقـب أسـود، قبـل أن يقـول:

- «اللعنـة عـلى هـذه المرآة.. إننـي لم أصـدق هـذا الوغـد الإيطـالي عندمـا أخـبرني، أنهـا مـرآة أثريـة وتفتـح البوابـة بيننـا وبـين العـالم السـفلي.. أي سـحر ملعـون يسـيطر عليهـا».

مـع كلمتـه غمـر الضـوء المـكان، ووصـل لآذاننـا هديـر المولـد المنـزلي الكبـير، وتلاشـى الظـلام، وتلاشـت الدوامـة، وكأنـما فضـح أمرهـا قـد أنهـى فاعليتهـا أو شيء مـن هـذا القبيـل..

وبعدها جمعنا عبد المنعم بالقرب من رأس جثة أبيه وقال:

- «مـا رأيتـماه هنـا، لـن يخـرج مـن هـذه الغرفـة.. لـن يقـال أن البيـت تسـكنه الشـياطين.. بيـت المنشـاوي سـيظل أطهـر بيـت في المنطقـة.. وسـأجزل لكـما العطـاء».

كان حديثـه مهينًـا بعـض الـشيء، ولكـن عبـد الهـادي نظـر لي بمعنـى جاريـه، فـلا مانـع مـن نفحـة إضافيـة بالإضافـة لثمـن غُسـل الميـت، فنحـن عـلى كل حـال لم نكـن لنفـشي أسرار الميـت مهـما كانـت.

إن حرمة الميت والبيوت لدينا مقدسة..

وبعد حوار قصير مع شقيقي عبد الهادي، أشار له شقيقي أن يغادر، ليتم مهمته، فإكرام الميت دفنه ..

خرج عبد المنعم وهو يرمق المرآة بكراهية!!

هذه المرآة لن تظل سليمة ليوم آخر .. إنه يعتبرها الآن عاره الذي دنس ليلة والده ..

ولا أعرف لماذ قررنا أنا وشقيقي الصمت وعدم الحديث عن الظل أو الدوامة التي ظهرت بداخل المرآة، وانهمكنا في غسل الجثة حسب الشرع، وبعد عدة دقائق، وقبل أن نلف الجثة في كفنها، ابتدرتني نوارة قائلة:

- «ألن يعود؟».

نظرت لها ثم هززت رأسي، لأخبرها أن الشيء لن يعود مجددًا، ولكنها أشارت لركن الغرفة وقالت:

- «ألن يعود لداخل المرآة؟».

تجمد الكفن في يدي، وثبتت نظرتي على ذلك الشيء الذي كان يقف متماوجًا في منتصف الغرفة، تتأرجح حالته بين الطيفية والمادية.

ملامحه لم تكن واضحة، وإن كانت هيئته العملاقة تبرز مدى ضخامته.. إن طوله لا يقل عن متران ونصف، ولمحت أنا في هذه اللحظة هيئته المرعبة المليئة بالعروق والندبات.

شيء مفزع لا أتمنى أن يكمل تجسده في عالمنا.

لاحظ عبد الهادي وسط انهماكه، توقفي عن العمل، فرفع رأسه ليحثني عليه، فهو لن يستطع عقد العقد السبعة بذراع واحدة، عندما رأى هيئة الشيء المفزعة، فقال في هلع:

- «ألـن تنتهـي هـذه الليلـة السـوداء.. سـلام قـول مـن رب رحيـم.. سـلام قـول مـن رب رحيـم».

لا أعـرف لماذا اجتاحنـي ذلـك الخـوف المريـع لدرجـة أن شـعر جسـدي كلـه قـد انتصـب..

ولأن الخـوف يدفعنـا لارتـكاب الحماقـات، وجـدت نفـسي في اللحظـة التاليـة أقـترب منـه دون حـذر، وأقـوم بآخـر فعـل ممكـن أن يقـوم بـه شـخص عاقـل يواجـه مخلـوق بمثـل هـذه الهيئـة..

مـددت يـدي لألمـس جسـده المتوهـج المتذبـذب، ثـم سـحبتها بسرعـة وأنـا أصرخ، بعـد أن كادت تحـترق مـن بـرودة كيانـه..

البرد يحرق بالفعل كالنار..

وكان جسده باردًا جدًا..

طريًا جدًا..

لزجًا جدًا..

هل هذا هو السيتوبلازم، الذي يميز مخلوقات العوالم السفلية؟

كل معلوماتي قاصرة في هذا الشأن برغم قراءاتي المتنوعة..

نبهتـه صرختـي لوجـودي، فاسـتدار ببـطء ليواجهنـي، فخفـق قلبـي في عنـف، وأنـا أحـدق في عينـاه الدمويـة الوحيـدة، التـي بـدأت تتجسـد وتمتـلئ بعـروق فسـفورية بـارزة.

منحنـي نظـرة طويلـة وكأنـه يقيـم خطـورتي، وفي هـذه اللحظـات الرهيبـة شـعرت بروحـي تـكاد تخـرج مـن جسـدي مـن فـرط الخـوف..

إن في نظراته شيء مريع، شيء يحرض على الموت..

لقـد كادت روحـي تزهـق بالفعـل مـن هـول نظراتـه التـي لم استطع أن أحيـد ببـصري عنهـا.

وحتـى هـذه اللحظـة لم أشـعر في حيـاتي بخـوف مماثـل مثـل مـا حـدث لي في تلـك اللحظـة.

وبعدهـا تحـرك بهـدوء ليعـبر مـن جـواري، وكأننـي كائـن شـفاف أو مصنـوع مـن الزجـاج، ثـم اقـترب مـن مـكان الجثـة، فتراجـع شـقيقي عبـد الهـادي عـدة خطـوات للخلـف، وهـو يتابـع مـا يحـدث في هلـع.

أشرت لنوارة كي تقوم بأي فعل، فاقتربت منه..

وعلى بعـد نصـف مـتر مـن جسـده الـذي بـدأ يمتـلىء بعـروق فسـفورية دمويـة، ظهـر عـلى وجههـا الألم الشـديد والمعانـاة، وبـدأت تتلـوى بشـكل يفطـر القلـوب..

كنـت أتمنـى لـو أننـي أسـتطيع لمسـها ولكـن الأمـر قبـل النيـزك لم يكـن ممكنـا، وبعـد النيـزك أصبـح محرّمًا، ولم ينجهـا مـن عذابهـا إلا ابتعـاد الـشيء المخيـف عنهـا، فعـادت لتنتصـب بصعوبـة، وهـي تشـير نحـوه باضطـراب قائلـة:

- «عليكما أن تهربا، إنه شيء مقيت، وشديد الخطورة».

نظـرت لهـا بغـير فهـم، ولم تـشرح هـي أكثـر، بـل اتجهـت نحـو الحائـط واخترقتـه، لتتركنـا وحدنـا مـع الجثـة، والكائـن المتحـور، الـذي بـدأت هيئتـه الطيفيـة تتلاشـى، وتتشـكل هيئتـه المفزعـة.

وهنـا قطـع أفـكاري شـهقة عبـد الهـادي، فرفعـت رأسي نحـو المخلـوق المفـزع فوجدتـه يرتقـي منضـدة الغسـل، ويفـرد جسـده فـوق جثـة الميـت.. ويغـوص بداخلهـا..

الشيء الذي جعلني أشهق، وأكتم صرخة كبيرة في صدري، أن الجثة نفسها، جثة هاشم المنشاوي ..

هبت جالسة!!

وبصوت هاشم المنشاوي الذي لا أخطئه قالت:

- « أين أنا ؟».

وسقط قلبي في قدمي.

لقد عاد الميت إلى الحياة..

وكانت ردة فعل عبد الهادي غير متوقعة..

أبدًا..

* * *

(3)

عبـد الهـادي شـقيقي، القـوي، الجسـور، ميـت القلـب، الـذي يتعامـل مع الموتـى أكثر مـن تعامله مـع الأحيـاء.. لم يتحمـل عبثيـة الموقـف، وفقـد الوعـي، وسـقط أرضـا في عنـف لتنفصـل ذراعـه الخشـبية عـن جسـده.

موقف هزلي أكثر منه موقفًا مخيفًا..

عبد الهادي فاقد الوعي.

نـوارة تركتنـي ولا أعـرف مـاذا أصابهـا، ولا كيـف حالهـا الآن؟ وهـل مـا زالـت تعـاني جرّاء اقترابهـا مـن هـذا الـشيء المخيـف ذو العـين الواحـدة، التـي جعلتـه يشـبه المسيخ الدجـال.

الصمت من حولي أسوأ من الصراخ والضجيج.

وحدي أنا مع الجثة العائدة من الموت ..

يســود هــدوء موتــر للأعصــاب منــذر بــكل شر، ذكــرني بتلــك الليلــة الســوداء التــي تســللت فيهــا لبيــت تهــاني الغجريــة ..

وحــدي ولا أعــرف القــرار الصحيــح، فبوجــود عبــد الهــادي فاقــد الوعــي، الفــرار لم يعــد قــرارًا.

نظرت للجثة العائدة من قلب الموت، فوجدتها على حالها جالسة تتطلع نحو كل شيء بفضول مريب..

لزمت مكاني وأنا أتنفس بصعوب، وعقلي عاجز عن اتخاذ القرار أو التعامل مع الموقف، عندما شعرت بذلك الشعور الممض في نهاية عنقي..

وكأن هناك من يثبت بصره على ظهري أو يراقبني، وعندما نظرت للمرآة رأيت الهول ..

فعلى سطح المرآة ظهر ظل متماوج لكيان مخيف أخر، يتحرك بداخل عوالم المرآة بكل حرية، ويستعد ليعبر إلى عالمنا ..

وهنا دارات المشاهد السابقة كلها في عقلي، وتخيلت هذا الشيء المفزع يعبر عالم المرآة المخيف، ثم يحتل جسدي ..

يا إلهي ..

أمن الممكن أن يحدث هذا؟

وهذه المرة تركت خلفي الجثة الحية، التي حدت من حركة ذلك الكيان البشع، واقتربت أكثر من المرآة ..

شعرت بمجال قوي حولها..

شيء يشبه الكهرباء الاستاتيكية، ولكنه أقوى ..

ربما نوع من الترددات التي لا تظهر إلا بالاقتراب من المرآة في وقت محدد، عندما تنفتح تلك البوابة، التي حدث عنها الإيطالي الابن الأكبر لهاشم المنشاوي ..

إن المرآة تعود لزمن المماليك.. زمن السحر الأسود، والمجازر الدموية، والصراعات التي لا تنتهي.

سمعت صوت صرير.. فنظرت لطاولة الغُسل..

الجثة كانت تتحرك وتتأهب للنزول..

وربما للفتك بي ..

كان علي أن أبحث بسرعة عن سلاح ..

الجثة المتحركة من أمامي، والطيف المتموج الذي يمارس حياته الخاصة داخل المرآة من خلفي ..

عقلي يترجم الآن ما يحدث بعد أن أطلقت له العنان ...

المرآة بوابة للعالم السفلي، ربما كانت ترتبط بحياة هاشم المنشاوي، أو بموته على الأرجح، وربما في النهاية أكتشف أنها تتعلق بحركة النجوم، أو لعنة قديمة حان موعد بعثها..

المهم أن البوابة فُتحت الآن، وخرجت منها هذه المخلوقات بشعة الخلقة، والتي لديها القدرة على الاستحواذ أجساد البشر .

التهديد حقيقي جدًا، لأنها بالفعل قد استحوذت على جثة هاشم المنشاوي، وبدأت تتحرك بها..

وقريبا تستحوذ على جسدي، ولا أعرف وقتها إن كنت سأظل على قيد الحياة أم لا ..

هذا غير أن شقيقي عبد الهادي، الممدد كالجوال على أرض الغرفة فريسة أخرى سهلة، هو الآخر..

ولكنني قررت ألا يمضي الأمر دون قتال..

السلاح الوحيد الذي وجدته أمامي تمثال برونزي صغير لم أعتقد أنه بهذا الثقل، ولكني قادر على حمله بيدي والفتك به ..

نظرت للجثة التي تحركت صوب شقيقي، وبدأت في فحصه، ثم نظرت للمرآة التي تحولت لدوامة عميقة وبدأت تعكس خلفها عالم دموي رهيب، كل شيء فيه غارق بلون الدم.

سماء رهيبة تحتوي على نجوم قانية اللون، وصفوف من المخلوقات تتهيأ للعبور..

إنه نوع من الغزو .. وأنا وحدي من أواجهه.

تسمرت في مكاني، وأنا أتأمل في هلع وذهول، الطيف الذي يهم بالعبور..

أقدامي متيبسة، وعقلي لا يستجيب لي، ولكن التمثال الثقيل كان في يدي، فقط علي أن أقرر جبهة القتال، قبل أن أشرع في الخوض فيه..

كل ما قرأته عن المرايا، أو شاهدته في سينما المركز، يتجسد في عقلي الآن، إن نهاية أي شر قادم من المرآة ينتهي بتهشيمها، ولكن هذا سيعني أن المخلوق الأول لن يعود لعالمه، وبالتالي سترزق الأرض على يدي بمصيبة..

ولكني لم أكن لأمنح للمخلوق الثاني وأقرانه فرصة التسلل لعالمنا، والاستحواذ على جسدي، وسلبي حياتي أو حياة شقيقي..

وفي لمح البصر كنت أعدوا صوب المرآة.. وبكل قوتي رفعت التمثال البرونزي الثقيل وهويت به على سطحها المتموج، فشعرت بردة فعل عنيفة في ذراعي، ونتج عن المرآة، صوت ترددات صوتية عنيفة، وكأنما أقرع أنا سطحًا معدنيًا متوتر..

أتجاهل الألم وأعيد الطرق عليها بقوة..

المرآة تأبى التحطم، ويد المخلوق الثاني بدأت في التجسد في عالمنا..

- « الرحمة يا إلهي».

أصرخ بها في هلع، وأضرب المرآة ضربة أكبر في نفس المكان، فيتحول سطحها، إلى مايشبه السائل الفضي، وتلتهم من يدي التمثال البرونزي، لتنفصل بعدها يد المخلوق الثاني عن سطح المرآة المتألق، لتسقط أرضًا أمامي، قبل أن تهتز في قوة، وتخرج منها أبخرة كثيفة، وتشتعل بعدها على الأرض مخلفة ورائها رماد فسفوري داكن، ورائحة كيماوية لا تطاق..

لم أفهم ما حدث، بل نتيجته..

لقد منعت عبور المخلوق الغامض الثاني إلى عالمنا، وعلي أن أواجه الأخر الذي لم ينتهي بعد من فحص شقيقي متجاهلًا وجودي تمامًا، وصراعي مع المخلوق الثاني..

أنظر حولي في جزع باحثًا عن سلاح آخر ..

سيف من طراز قديم لامع، وبندقية عتيقة الطراز معلقان على الجدار المقابل..

بالطبع لا أحد يترك رصاصات أو بارود في بندقية مماثلة، ولا يشحذ سيف زينة معلقًا، ولكنه سلاح على كل حال ..

أنتزع السيف من فوق الجدار، وأخرجه من جرابه، وأنظر له في دهشة..

إنه سيف حقيقي ومشحوذ..

سلاح قاتل لا أجيد أستخدامه، ولكنه سيوفر لي حماية معقولة ..

أقترب من الجثة المتحركة، أثبت طرف سيفي في ظهرها، وأقول:

- «توقف عما تفعله حالا أيها المخبول، وإلا فتكت بك».

الأمر يزداد عبثية، فكيف سأقتل جثة ماتت وشبعت موتًا منذ زمن، ولكن لاشيء منذ بدأت هذه الليلة يبدو منطقيا ..

المخلوق يدير رأس الجثة بزاوية مستحيلة ليواجهني..

لو أطلق من فمه سائلًا لزج أخضر اللون، فقد انتقلنا لأحد أفلام الرعب المفضلة عندي، طارد الأرواح الشريرة .

وهذا لم يحدث لحسن الحظ ..

فقط اتسعت العينان..

اتسعتا بشكل رهيب..

ثم تحول السواد بداخلها للون أحمر دموي، وظهرت العروق الفسفورية قبل أن أشعر بشيء ما يعتصر عقلي، وكأن هذا المخلوق أيقن من تهديدي له أنني خطر قائم، وقرر التخلص مني ..

الضغط العقلي يزداد..

صدري خالٍ من الهواء، ولا قدرة لي على التنفس.

أنفي بدأ ينزف ..

أردد الشهادتين ..

إضاءة الغرفة ترتجف، والجدران تتحول إلى هلام مهتز، ينبع من خلفها صرير مروع.

الآن سأعرف حقيقة الموت، وما بعده..

الآن مهنتي ستصير حالتي ..

الموت رحيم ولن أقاوم أكثر.

ثـم سـمعت الجلبة، وخفـت قبضـة المخلـوق المخيفـة عـلى عقـلي عندمـا عـادت رأسـه لتـدور ليواجـه القادمـين، وعـدت أتنفـس مـن جديـد، فرفعـت يـدي المرتجفـة إلى أنفـي محـاولا وقـف النزيـف، وعينـاي تشـاهدان، عبـد المنعـم المنشـاوي، وباقـي إخوتـه، ينظـرون للميـت الـذي عـاد للحيـاة، بأعـين مذهولـة، وأفـواه فاغـره.

ثـم سـمعت صـوت خالـد الابـن الصغـير لهاشـم المنشـاوي يـصرخ في قـوة:

- «أبي لم يمت ..أبي عاد للحياة».

وبعدها لم أعرف ما حدث..

لأن تـرددات عقليـة هائلـة دوت في المـكان، وسـمعت عـلى إثرهـا صرخـات رهيبـة ، قبـل أن أفقـد الوعـي، ويسـود الظـلام ..

***

(4)

استيقظت من غيبوتي التي لا أعرف كم مضى على وجودي بداخلها، على هزات قوية من يد شقيقي عبد الهادي، الذي بدا على وجهه كل ذعر الدنيا، وهو يحاول إفاقتي، وأنا لا أستجيب له .

الرؤية مشوشة، والبصر غائم، ولكني أعرف من صوته المذعور أنه هو، ولو لم يكن هو، لما استطعت القيام بأي ردة فعل..

كان شعوري بأطرافي منعدمًا، وسمعته يردد في توتر يشوبه بعض الراحة:

- «الحمد لله .. أنت حي.. قم أيها الأحمق أقلقتني عليك».

هل أخبرتكم من قبل أني أحب شقيقي عبد الهادي، وأن موقفه هذا زاد من مكانته في قلبي، فرغم أنه كان يردد سابقًا، أنه لا فائدة من وجودي على سطح الأرض، وأن للأموات فائدة عني، إلا أني أدرك الآن أن صورته الجامدة، وهالة القسوة التي يبثها حوله، هي مجرد ستار يحكم به زمام الأمور، وأن بأعماقه قلب طيب ومحب.

نصف ساعة ظل فيها بجواري، يأخذ بيدي حتى تمالكت روحي، وصفا بصري بعد الغشاوة التي أصابته، وقل الصداع الرهيب الذي

اكتنف رأسي، وعادت الحركة لأطرافي، والقدرة على التحدث لأحبالي الصوتية، فسألته في اضطراب:

- «أين ذهب، هل تركته يمضي؟».

نظر نحوي في حيرة وقال:

- « إنه نفس السؤال الذي كنت سأسأله لك».

تبادلنا النظرات، ثم تبادلنا المعلومات، وقصصت على مسامعه، كل ما حدث حتى غبت عن الوعي.

وأخبرني هو أنه عندما استيقظ من غيبوبته، ورآني ممدًا على الأرض، ورآي أبناء المنشاوي متكومين فوق بعضهم ظن أننا جميعًا أموات، ففزع إلي، وعندما وجدني أتنفس، عاد لهم، فوجدهم جميعا على قيد الحياة، عدا عبد المحسن الذي بدا، وكأن عقله لم يتحمل هجوم المخلوق العقلي..

مد عبد الهادي يده لي ليساعدني على الوقوف، وهو يقول:

- « كل المعزون في نفس الحالة من فقدان الوعي، وهي فرصة رائعة لأي لص يجرؤ على دخول سراي المنشاوي في هذا التوقيت».

لم أعلق على جملته الأخيرة، فلا وقت للمزاح هنا..

وعاد يكمل هو ويخبرني، أنه بعد أن فحص الجميع عاد لي وعمل على إفاقتي، وتطلب هذا الأمر منه ساعة كاملة.

ساد الصمت بيننا للحظات، قبل أن تستدير أبصارنا معا نحو المرآة، وبصوت يحمل كل هدوء الدنيا قال عبد الهادي:

- «هذه المرآة يجب أن تدمر بأي شكل».

هززت رأسي بأني أوافقه، ولكن كيف؟

إن العنف لم يجد معها..

نظر لي بدهشة وكأنه يتعجب من جهلي وحماقتي، ثم أخرج من جيبه علبة ثقاب، لوح بها ثم قال:

- «إن هذه الأشياء لا يصلح معها إلا شيء واحد».

اتسعت عيناي في دهشة عندما فهمت قصده، فقلت له في سرعة:

- «هل تقصد ما فهمته، هل نجرؤ على فعلها؟».

لم يرد علي، بل قام وتركني وحيدًا أحرك أطرافي في عصبية، محاولا إعادتها لسيرتها الأولى، فعاد لي حاملا في يده، جركن بلاستيكي، يحتوى على ذلك السائل، نفاذ الرائحة ..»البنزين».. لابد وأنه المستخدم في تشغيل المولد المنزلي.

فنظرت له في إعجاب وقلت:

- «هل ستفعلها حقا؟!، قد يشتعل المكان كله، ويحترق على رأس من فيه».

بدا وكأن الفكرة تسيطر على تفكيره، إنه لم يتجاوز بعد رؤيته للمخلوق الرهيب الذي استحوذ على الجثة، ثم رؤيته لها تنهض من الموت.

تابعته ببصري، وكأني أشاهد مشهدًا مثيرًا في فيلم أكشن يعرض في سينما المركز، فرأيته يزيح الأثاث من حولها، ويجذب المفرش الحريري، والتحف التي فوقه ليبعدها، قبل أن يهيل السائل نفاذ الرائحة على المرآة بالكامل ويخرج علبة ثقابه، ويشعل طرفها الخشبي المليء بالنقوش التي تشكل وجه الشيطان .

اشتعلت النيران في المرآة دفعة واحدة..

وبدا الرضا ظاهرًا على وجه شقيقي..

لا أعرف إن كان مستمتعًا بمنظر النيران التي كانت تحرق جزء من ممتلكات المنشاوي الذي لم يكن يطيقه، أم أنه سعيد بالتخلص من تلك المرآة الملعونة، التي عبرها كائن مخيف قادر على سكن أجساد الموتى وإعادتهم إلى الحياة .

النيران تلتهم الأخشاب في سرعة وكأنها كانت مغموسة من قبل في سائل سريع الاشتعال، سطح المرآة يتموج في قوة، وتخرج منه ترددات عنيفة، لو كانت صدرت عنها في وقت سابق، لربما أنقذتها قبل أن تتقوض.

تسيل المرآة وكأنها مصنوعة من الشمع، أو الفضة السائلة، ليدوي بعدها انفجار محدود، ويتناثر رمادها في كل الأنحاء.

شقيقي عبد الهادي يسعل مقتربًا مني، وهو يتعامل مع يده الخشبية في محاولة فاشلة لإعادتها لموضعها، وهو يقول:

- « ألم أخبرك!!؟»

أنظر لمكان المرآة الذي تشوه، وإلى الرماد الكثيف الذي غطى الأثاث، ثم أنظر له مجددًا في إعجاب ممزوج بالقلق، وأنا أقول:

- « لقد فعلتها حقًا.. ولكننا بهذا قطعنا خط الرجعة على المخلوق الثاني».

نظر نحوي في قلق، ثم صمت قليلًا وقد ظهر على وجهه ملامح تفكير عميق، قبل أن يقول:

- « ساعدني لإفاقة الرجال، وتغطية الميت، ولنرى بعدها ماذا سنفعل، فلن نستطيع إقناعهم مهما حاولنا، بأن يحرقوا أبيهم حتى لو كان ميتا من قبل».

قالها ثم صمت قليلًا، ونظر في عينيّ قائلًا:

- «ألا تعتقد أنك نحس يا شقيقي العزيز.. لا مكان تذهب إليه إلا وتقوم قيامته، ويسقط ضحايا».

نظرت لوجهه كان يتحدث بجدية عجيبة، فأشحت بيدي التي آلمتني، وقلت:

- «لو كان ما تقوله صحيحًا.. فنحن سويًا أبناء النحس، لأن معظم الأحداث الكارثية والمأساوية تحدث في وجودك».

ظهرت على وجهه ملامح تفكير عميق قبل أن يقول:

- «لا أعتقد هذا .. فأنا لا تصاحبني عفريتة مثلك».

كدت أدخل معه في نفس الجدل البيزنطي الذي لا ينتهي حول نوارة، ولكنه أشار لي بأن أحضر الكفن الساقط على الأرض والذي تركته خلفها الجثة التي عادت إلى الحياة وأختفت عارية، وقمنا سويا بجر جثة عبد المحسن الهامدة، ووضعناها في جانب الغرفة، وغطيناه بالكفن، ثم شرعنا في إيقاظ الجميع..

لن أحكي عن حالات الفزع ولا الهلع، ولا ما تلا ذلك من محاولات استنكار أو شرح لتوضيح أن في الأمر مرآة تعود لعصر المماليك، وأنها ثغرة تقود مخلوقات شريرة لعالمنا..

وأن أباهم الذي عاد للحياة ميت ..

وأنه يجب علينا حرقه، أو في أحسن الأحوال، قتله.

وبعدها جرت عمليات بحث كثيرة لم تنته لشيء..

فقط شريط طويل من الفاقدين للوعي على طول الطريق... انتهى إلى حيث توجد محطة القطار، وبعدها لا شيء..

لا أثر للجثمان..

ولا أثر للمخلوق المخيف..

قمنا بواجبنا نحو عبد المحسن، فغسلناه ودفناه، وكفناه، ثم واريناه التراب، دون أن نطلب مقابل إضافي، أو يمنحنا أحدهم شيء وسط حالة الذهول التي عمت الجميع..

كان ما دُفع للأب يكفي ويغطي مراسم وداع الابن..

وانتهت القصة مع الجميع إلى هنا ..

ولكنها لم تنته معي ..

لقد عادت نوارة..

حبي المستحيل ..

عادت وقد كساها الشحوب، إن كان للأطياف أن يغزوها الشحوب..

شعرت بها مريضة وضعيفة، حتى إنها لم تجلس معي كعادتها حتى يحضرني النوم ..

وقبل أن تغادر سألتها:

- «ألا تعرفين أين ذهب؟».

استدارت نحوي..

ثم أشارت إلى أسفل..

دون أن تضيف أي كلمة ..

كانت إشارة بليغة ومخيفة..

ولكنها لا تعني أن الخطر قد زال ..

إن كم الأخطار الذي يتربص بقريتنا وقاطنيها يتضاعف كل يوم..

تُرى ما السبب؟

* * *

أحكي عن ركاب قطار..
يندفع بقوة مليون حصان..
وبسرعة ريح مجنونة..
نحو الهاوية بقاع الغمر

«بروتوكولات حكماء ريش ٢»
نجيب سرور

الآن تراه

(1)

برغم كل كوارث الحياة ومصائبها.. الحياة تمضي.. لا شيء قادر على إيقاف عجلة الزمن أو إبطائها.. إنه القطار الوحيد الذي لا يتوقف في محطة، ولا ينتظر أحد.

كانوا يقولون قديمًا، أن العمل لا يقف على إنسان، واتضح لي أنه لا شيء في الحياة يقف عليه، أو يتغير أو يسوء به.

الإنسان أوهن من أن يكون فاعلًا في حياة الكون، كل ما يستطيع فعله، أن يوهم نفسه بأنه قادر على الفعل، وهو لا شيء.

مضت الحياة بنا، ورغما عنا، كل كوارث ومصائب الناس، مثلت ازدهارًا لعملنا، ولا أخفي عليكم، في هذه الفترة كنا لا نلاحق على العمل..

ففي الصباح ميت، وفي المساء آخر..

وكأنما السماء قررت أن تنزل بغضبها على القرية، فقررت قبلها أن تحرمنا من البركة ..

جيل كامل من كبار السن ذهب إلى حدود الأبدية..

الأجداد والجدات، تنطفئ شمعة أعمارهم، الواحد منهم تلو الآخر، وكأن ملك الموت في عجلة من أمره.

لتستحق القرية الهول القادم.

وصلني الخبر قبل أن يصل للعديدين.. وإن وصلني متأخرًا، كنت منشغلًا تلك الليلة بتلك التغيرات الغريبة التي تجتاح روحي وهيئتي منذ أن تم وصمي، فلم أتنبه للنداءات المتكررة، التي كانت تبث عبر ميكرفون المسجد القريب.

لن يحتاج الأمر لذكاء لتعلموا أنه وصلني عن طريق نوارة .. هي من أقبلت لتخبرني أنهم قد ذهبوا..

سألتها في دهشة:

- «من هم، وكم عددهم ؟».

صمتت قليلًا ثم أشارت للغرب وقالت:

- «إنهم كثيرون جدًا.. ذهبوا بعد أن تصادم القطاران.. مازال بعضهم يقاتل.. ولكنهم سيذهبون أيضًا.. عليك أنت أيضا أن تذهب لتساعد».

نظرت لها في دهشة وقلت:

- «تصادم القطاران، هل أنتِ متأكدة.. إنها كارثة كبرى».

هزت رأسها وابتسمت:

- «نعم إنها كارثة».

لم تدهشني ابتسامتها أو تثير أعصابي؛ أنا أعتدت منها كل شيء، وأعلم طريقة تفكيرها، إنها تعني أن هذا موت كثير، وهو يعني لنا عمل أكثر، ورزق وفير.

لم أفكر مرتين، إنتزعت شقيقي عبد الهادي من فراشه، وأخبرته بالأمر، ليهب معي لنجدة المصابين.

إنها الكارثة الأولى من نوعها في قريتنا، فخط السكة الحديد الذي يمر بها، ليس خطا رئيسيًا، ولا يوجد ضغط عليه، وهناك عدة محطات مزدوجة الخطوط، يلتقي فيها القطارن، قبل أن يذهب كلٌ منهما في طريقه، يقطعان خلاله طريقًا زراعيًا بين القرى، من مركزنا إلى محافظة المنوفية، ويتم الأمر بسلاسة ودون مشاكل أو حوادث منذ سنوات.

أحيانا يتم تحويل أحد الخطوط الرئيسية إليه عند القيام بصيانة القضبان المعدنية، أو عند وجود أي خطب يستدعي ذلك، ويلتزم القطار السريع بقوانين وقواعد المرور، فيتوقف فقط في محطات التحويلات، فماذا تسبب في هذه الكارثة المفجعة؟

هل غفل بعض العاملين في السكك الحديدية عن واجبهم؟

أم أن هناك سبب آخر؟

خلال ارتداء شقيقي عبد الهادي لثيابه سألتها، فأخبرتني بصوتها الرقيق:

- «إن الخطأ من القطار الآخر .. القطار الذي يقوده الشرير».

كانت مبالغة معتادة منها، فهي تربط كل الشرور بالشرير، وذلك الشرير الذي لا أعرف توصيفًا حقيقيًا له في عالمها، ربما هو معادل الشيطان في عالمنا، ولذلك لم أجادلها أكثر، وقدت أنا الدراجة النارية التي اقتنيتها مؤخرًا، وخلفي ركب عبد الهادي، الذي تمسك في وسطي بقوة.

ملمس يده الخشبية غير مريح، ولكني لا أملك ترف التذمر.

وأثناء الطريق لاحظت أن طرق البلدة استحالت نهارًا، من المشاعل والكلوبات، وكشافات الإنارة في أيدي الرائحين والغادين.

لقد هب الجميع لنجدة المصابين، بعد أن صدعت المساجد بالنداء، لتحث جميع من بالقرية على القدوم..

ميكروفونات المساجد، كانت وسيلتنا الوحيدة، للتنبيه من الكوارث، أو الإعلام بوقوعها، وهي وسيلة ناجحة جدًا، وفعالة.

وعندما وصلت إلى مكان الحادث لم يكن هناك إلا قطار واحد منقلب على جانبه، وبعض عرباته مهشمة، والدخان يتصاعد من قاطرته الرئيسية، وفي كل مكان يفترش المصابون الأرض، هذا غير مربع كامل من إحدى الأراضي الزراعية، كان ممتلئًا عن آخره بالجثث..

بحثت بعيني عن القطار الآخر الذي أخبرتني عنه نوارة دون جدوى.. وأنا أحمل بعض الأطفال المصابين المرتاعين، وأبعدهم عن شريط القطار.

بعضهم كان في خير حال لا يعاني إلا من الصدمة، والبعض الآخر كان في حالة يرثى لها.

الطفل الأخير، أعتقد أنه هُرس تحت أقدام من حاول النجاة بعد لحظات من خروج القطار عن قضبانه..

قلبي منفطر، ولكن عقلي في عالم آخر ..

إن نوارة دقيقة دوما في كلامها، فأين القطار الآخر؟!..

ساعتان كاملتان نحاول فيهما إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ولكن الحادث كان شنيعًا فعلًا ..

القاطرة مهشمة من مقدمتها وكأنها اصدمت بقوة في حائط خفي، والارتداد الرهيب تسبب في مصرع قائدها ومساعده من اللحظة الأولى، بل وسحقهم سحقًا..

تذكرت الحادث الذي وقع لنجل رجل أعمال ياباني، فلم يستطيعوا فصل جثة الابن، عن أجزاء السيارة فدفنوهما معًا..

فهل سيتم دفنهما مع القطار؟

لا أعتقد أنهم في النهاية سيخرجونهما ولو أشلاء .

وكانت هناك مشكلة غريبة أخرى، فالبعض يبحث عن ذويهم، دون أن يعثروا لهم على أدني أثر، وكأنهم تبخروا أو تلاشوا في العدم..

الجميع يبحث دون فائدة، حتى ظن البعض أنهم أصيبوا بالجنون من هول الصدمة.

شيء ما مريب في الأمر..

ثلاث ساعات أخرى نبحث، ونساعد الحماية المدنية، لإنتشال الجثث، وإنقاذ من علقوا بداخل القطار، أو أسفله، وكنا نرى ملك الموت وهو يسبقنا ليخطف أرواحهم ..

لحظات الاحتضار قاسية ولها رهبة عظيمة ..

أن تتعامل مع الموتى شيء، وأن ترى لحظاتهم الأخيرة شيء آخر ..

وقبل الفجر بساعة كاملة.. انتهت جهود الإنقاذ، وانتشال أشلاء الضحايا، وبدأ الهدوء يعود إلى المكان..

وبدأت الأنوار تتناقص مع رحيل المتطوعين، وإن ظل من يبحثون يبحثون دون أمل أو جدوى.

عبد الهادي بدا عليه التأثر، خاصة عندما مات بين يديه ذلك الطفل الرضيع الذي تهشم جزء من مقدمة جمجمته مع قوة الارتطام.. لذلك عندما بدأت الأمور تستقر، ولم يعد هناك من يحتاج جهوده سبقني مستخدمًا دراجتي النارية إلى البيت، بينما كنت أنا آخر الراحلين ..

نـوارة كانـت هنـاك طـوال الوقـت، تتحـرك بـين عربـات القطـار المهشـمة، وبـدا عليهـا أنهـا كانـت منهمكـة في إحـدى ألعابهـا الغريبـة.

وعندما رأتني وحدي أهم بالمغادرة أقتربت مني وقالت:

- «ثلاثـة عـشر طفـلًا.. وعـشرون امـرأة.. وسـبعة وثلاثـون رجـلًا ذهبـوا.. لقـد أحصيتهـم عـدة مـرات».

كانـت روحـي مثقلـة بـما رأيـت، وجسـدي منهـك مـن المجهـود الـذي بذلتـه، وعقـلي قـد ركـن إلى أن الحـادث كلـه نتيجـة خطـأ مـا، وليـس نتيجـة اصطـدام قطاريـن كـما أوحـت لي نـوارة، لذلـك كانـت العـودة لفـراشي هـو همـي الأول.. فقـط لتمـضي هـذه الليلـة الثقيلـة.

كلـمات نـوارة أضافـت لحـزني حـزن جديـد، فأنـا لم أسـتوعب بعـد كل المـوت الـذي رأيتـه، وعـدد الأطفـال الموتـى صنـع في روحـي غصـة، وذكـرني بأطفـال عبـد المجيـد الغـزولي..

سبعون ضحية في غمضة عين.

كيف تسير الأمور في هذا الكون؟

كادت أفـكاري أن تجنـح إلى حيـث يوجههـا شيطاني، فقـررت أن أقطـع الطريـق بالحديـث مـع نـوارة، وأنـا أسـير فـوق دعامـات القضبـان، متخـذًا الطريـق الأطـول نحـو المنـزل، عـلى طـول شريـط القطـار، الـذي سـيقودني صـوب المحطـة، ومنهـا إلى بيتـي، وكانـت نـوارة تتسـلى بالقفـز مـن دعامـة إلى أخـرى كالأطفـال عندمـا سـألتها:

- «هل الموت عندكم مؤلم، كما هو عندنا؟».

هزت رأسها ببطء وقالت:

- «الموت مؤلم في كل مكان.. والفراق أشد ألمًا».

نظرت نحوها في شفقة وقلت:

- «هل تحنين للعودة لعالمك؟».

توقفت فوق إحدى الدعامات، واستدارت ومنحتني نظرة طويلة وقالت:

- «ومن لا يحن إلى موطنه».

ثم صمتت وعادت ابتسامتها تكسو وجهها، وقالت:

- «ولكنك موطني الآن».

كلماتها كانت تعني الكثير، ولكنها أشعرتني بعجز فقلت لها:

- «وأين يقع مكان موطنك.. هل عالمك قريب؟».

رمقتني بنظرة طويلة وحزينة، وهي تقفز على دعامة جديدة قبل أن تصرخ في هلع:

- «احترس.. قطار الشرير قادم».

نظرت بالاتجاه الذي تشير إليه، وعقلي يخبرني أنه ليس موعد قطارات، كما أن القطار المهشم مازال في موضعه، ولم تبدأ إجراءات رفعه من على القضيب، ولن يكونوا بالحماقة الكافية ليسيروا قطارًا على خط لم تجف منه بعد دماء ضحاياه .

لا شيء .

- «أي قطار يا نوارة.. هل بدأتِ تخرفين؟».

صرخت في أن أبتعد عن القضبان، فأطعتها لا إراديًا، وأنا أشعر أنها جنت، ثم تأكد لي هذا الأمر عندما قالت:

- «لحظات وسيمر من هنا.. أنا أشعر بتردداته.. ولكنك ستراه.. أنت تغيرت كثيرًا، وسيكون لديك القدرة على رؤيته عندما يقترب أكثر».

كلماتها أعادت مخاوفي كلها بشكل أعمق، وأكدت لي شكي، بأنني بالفعل أتغير، شيء ما يحدث لجسدي، وشخصيتي.

وقبل أن أدخل معها في جدل عقيم قالت:

- «الآن تراه».

وفجأة وكأنما حدث لعقلي نوع من الإطفاء ثم إعادة التشغيل، لمحت على البعد ضوءًا غريبًا قادمًا بسرعة كبيرة، يخترق ضبابًا كثيفًا أو دخانًا لا أدري مصدره.

عجلاته المعدنية تصدر صريرًا مرتفعًا، ويَصدُرُ عن احتكاكها بالقضيب شرارات نارية تناثرت في كل مكان..

بدا من بعيد وكأنه كائن حي غاضب وقادم نحونا..

كنت قد اقتربت من سلم المحطة، فعدوت بسرعة، وارتقيته صاعدًا، وخلفي نوارة، ووقفت هناك حيث الأمان، بعيدًا عن مسار القطار الرهيب.

صافرته الصارخة تصدر ضجة تشبه عويل المعذبين في سقر..

الضوء الساطع يعمي عيوننا، وكأنه شمس متحركة ..

صوت الصرير يتزايد، وحرارة رهيبة تغمر كل شيء، وكأنه قادم من الجحيم..

أفتح عيني بصعوبة..

وأذناي تلتقطان صوت فرملة عالية كقصف المدافع.

الحرارة تنخفض بشكل ملحوظ ..

الضجيج يخفت ويتحول لهدير منتظم ..

القطار يتوقف أمام عيني اللتين تذرفان الدموع ..

أنظر نحوه في رعب، وعقلي يحاول ترجمة هذا الهول الذي أراه..

لم يكن قطارًا بالمعنى الحرفي للكلمة ..

بل كان شبح قطار.

***

(2)

تأملت القطار جيدًا، بعد أن توقفت عيناي عن ذرف الدموع من أثر الريح الساخنة التي كانت تهب علينا من حيث أتى القطار، وقلبي يخفق في عنف، وأنا أتساءل في توتر بيني وبين نفسي: هل الجمادات تموت ليكون لها أشباح؟.

قطار شبح!!

هل عدت للهلاوس مجددًا؟

مسحت القطار بعيني، وقبضة باردة تعتصر قلبي، وهلع رهيب يغتالني أمام هذه المشهد الرهيب.. كان يبدو وكأنه يمتد وسط الضباب إلى مالانهاية.. وهذا جعل قلبي ينقبض أكثر، وأنا أتسائل عن شكل ركابه، والأكثر، من يقوده؟!.

لا شيء مميز في هيكل القطار الخارجي، هو يشبه فقط القطارات التي كانت تسير بالفحم قديمًا.. هيئة كلاسيكية شفافة تثير الرهبة بشكل قوي.

عرباته لا كتابة عليها بأي لغة.. الرمز الشهير لسكك حديد مصر (س.ح.م) غير موجود.

هـذا قطـار مـن عـالم آخـر، بـل ومـن زمـن آخـر، فلـن يـأتي قطـار مـزود بتقنيـة الحربـاء إلى قريتـي، هـذا شيء يصلـح لأفـلام الخيـال العلمـي التـي لا نصـدق معظمهـا، ورغـم ذلـك لا يليـق بـه أن يتواجـد في هـذا المكـان.

وبرغـم كونـه شـفافًا، فهـو أقـرب لانعـكاس عـلى سـطح زجاجـي، أو صـورة هولوجراميـة مجسـمة، إلا أنـه لا يشـف مـا بداخلـه.

وقفـت أمـام القطـار، منتظـرًا الهـول الـذي سـيخرج منـه، متوقعًـا مجموعـة مـن الزومبـي أو الشـياطين الغاضبـة، قريتـي تصلـح لفيلـم رعـب بالتأكيـد، ولكـن هـل سـتتحقق مخـاوفي؟..

الوقت يمضي ولا شيء يحدث..

القطـار يهـدر بصـوت كالأنـين، ومكابحـه الهيدروليكيـة الشـفافة، تنفـث البخـار كتنـين غاضـب مـل مـن انتظـاري، فنظـرت إلى نـوارة التـي قالـت بصوتهـا الطفـولي المتوجـس:

- «لا أحـد يهبـط مـن هـذا القطـار.. ولكنـه ينتظـر أن تصعـد إليـه.. هـل ستذهـب؟».

توقفـت مـن زمـن عـن الاندهـاش مـن أي حـدث خـارق يحـدث في قريتـي، فقـط كنـت أتحفـز وأنتظـر الأسـوأ، ولكـن كلماتهـا أدهشـتني وأثـارت ريبتـي، فرمقتهـا في غـير فهـم فقالـت:

- «الشريـر يريـدك أن تصعـد إلى القطـار.. إن كل التغـيرات التـي أصابتـك كانـت مـن أجـل هـذه اللحظـة.. إن مسـاعده هـو مـن وصمـك تمهيـدًا لمـا تـراه الآن.. وكان حـادث اليـوم هـو الثمـن المدفـوع للقـاء».

اتسعت عيناي في ذهول، وسألتها في شك:

- «وكيف تعرفين كل هذا ؟».

أشارت للقطار، وقالت ببساطة:

- «هو يخبرني بكل هذا الآن».

لو لم أتوقف عن الاندهاش الآن، فربما أقضي نحبي بسكتة دماغية أو قلبية، وقلت:

- «يخبرك الآن .. أتستطيعين التواصل معه؟!!».

هزت رأسها نافية، وقالت بصوت محايد:

- « لا بل هو من يستطيع التواصل معي، متى أراد».

نظرت لها في ريبة، إنها المرة الأولى التي يخفق قلبي نحوها بغير الحب، وقلت وأنا أكاد أُجن:

- «وما هو الشيء المميز في شخصي ليكلف نفسه عناء رحلته الدموية هذه، أنا مجرد (لحاد) حانوتي يقوم بدفن الموتى، ويقرأ الروايات والكتب، فما هو الشيء الذي يجذبه إلي ويجعله يقتنص في طريقه سبعين روحًا كقربانا دمويا للقائي.. أي شيطان هو».

صمتت للحظات ثم قالت:

- «إنه يقول إن عليك أن تخوض الرحلة لتنال المعرفة.. لابد أن تركب القطار».

إجابتها صدمتني، فقلت بعناد:

- «ومن يستطيع أن يجبرني؟».

قالت بصوتها المحايد:

- «إنه يقول.. أنه لا إجبار هناك.. لأنك بإرادتك ستركب القطار في النهاية.. ليس فضولا، ولكن لأن الأرواح السبعين مجرد بداية».

هل أنا نائم.. هل أحلم.. أهو كابوس خارج من عوالم قصص الرعب التي أقرأها.. أم أنه أحد كوارث قريتي التي لا تنتهي، والتي لا أعلم لماذا يسكنها كل هذا الشر؟.

أرمق نوارة في قلق، عقلي يكاد ينفجر من ضغط الأفكار، نوارة تبدو وكأنها لا حول لها ولا قوة، حتى ابتسامتها اختفت.

إنها واقعة تحت سيطرته العقلية بشكل كامل، لماذا إذن لم يتواصل معي مباشرة؟

نوارة تقرأ أفكاري، وتجيب عن لسانه:

- «لأن تحولك لم يكتمل بعد».

الآن أتذكر حديث أخي عبد الهادي عن تغير شكلي وهيئتي لأني أصاحب الجن..

أتذكر شكلي في المرآة، والقسوة التي بدأت تتسلل إلى روحي وملامحي..

أتذكر يوم لقائي بنوارة، ويوم تم وصمي..

أتذكر كلمات تهاني الغجرية:

- «إن طالعك نحس.. ولكنه ليس مبررًا لما فعلت».

الآن أنا أعرف أنني منحوس،وربما جلبت النحس لقريتي أيضًا.

وأنا الآن بين شقي رحى، وسأُسحق في كلتا الحالتين، فلو ركبت القطار اللعين الذي لا أعرف ماذا يختبيء لي بداخله، فلن أعود مرة أخرى، فنوارة أخبرتني أنه لا أحد يهبط من هذا القطار.

ولـو اخـترت الفـرار، فلـن تتوقـف حـوادث القطـارات الدمويـة، إن العـبء النفـسي رهيـب، ربـما ذنـب السـبعين روحًـا السـابقة ليسـت في عنقـي بشـكل مبـاشر، ولكـن الضحايـا القادمـين سـيكونون كذلـك.

ومـع تداعـي الأفـكار في عقـلي، قفـزت إلى رأسي فكـرة منطقيـة بشـكل كبير، اعتبرتهـا طـوق نجـاة، وقرأتهـا نـوارة فقالـت عـلى لسـان الشريـر كـما تطلـق عليـه:

- «إنـه يقـول: لكـي تـرى، عليـك أن تقـترب منـي أكثـر.. ليس لدرجـة التلامـس لأنـه يريـدك حيًـا، فقـط ليسـتطيع نقـل الصـورة لعقلـك».

الآن تأكـدت أن نـوارة تحولـت إلى جهـاز إرسـال واسـتقبال كـوني جهنمـي، والجنـون أني أجاريهـا.

بداخـلي فضـول ينهشـني، ولكـن ليـس لدرجـة أن أركـب قطـارًا لا نهايـة لعرباتـه، يقـوده كائـن مخيـف، يتخاطـر عقليًـا مـع كائنـة سـامة أخـرى.

اقتربت منها في حذر..

قلبي يخفق هذه المرة من الهلع لا الحب.

ثم فجأة شعرت بالبرودة..

بـرودة شـديدة، وكأنـما ألقـي بي في قلـب المحيـط المتجمـد الشـمالي، ممـا جعـل قشـعريرة رهيبـة تغـزوا كيـاني.. ثـم شـعرت بعقـلي يغـلي، وفي لحظـة واحـدة حـدث التواصـل العقـلي الرهيـب..

عقـلي يشـتعل مـن كـم المشـاهد والصـور شـديدة البشـاعة التـي تتدفـق إليـه دون هـوادة. إن مـا أراه يحتـاج لذاكـرة خارقـة كـي تلـم بـه، ومليـار عقـل كعقـلي ليسـتوعبه.

إن كم العوالم التي تدفقت ذكرياتها إلى عقلي لا يمكن حصره، وما أدركته منها أن مساحة الكون، أكبر من تخيلنا، وأن وحدة السنين الضوئية التي صكها العلماء لتقدير المسافة هي شيء تافه بالمقارنة بحقيقة الكون، فكم العوالم التي زارها راكب القطار الجهنمي، توحي بعدد لا نهائي، وبقدرات عظيمة لا يمكن أن يمتلكها مخلوق عادي.

إنه يخترق المسافات والزمن بين المجرات في لمح البصر، يوزع لعناته على مخلوقات الكون في سخاء شبه إلهي.

الآن أرى مخلوقات من نار، ومخلوقات من ماء تتعذب على يديه، مخلوقات ذات حراشيف و مخلوقات مدرعة تتواجه في حروب هائلة بتوجيهاته.

أرى مخلوقات من صخر ورماد تفني نفسها، كي لا تصعد إلى قطاره، الذي كانت هيئته تتبدل من عالم إلى عالم.

وأرى مخلوقات جميلة الهيئة تشبه الملائكة تتساقط غارقة في دمائها المضيئة، بعد أن وعدها بالأمان وقرر الفتك بها.

وأرى كواكب كاملة أفناها، وكواكب أستعبد أهلها بالكامل.

الملايين من المخلوقات المتنوعة، التي تشبه البشر والتي لا تشبهها، يرضخون لشره، يركبون قطاره، يختفون من عوالمهم إلى الأبد.

الأمر كابوسي بشكل مروع.

إن هذا القطار يبدو كثقب أسود لا نهائي يبتلع مخلوقات العوالم المختلفة سيئة الحظ التي وقعت في طريقه، لو صح كل ما رأيت في هذا الاتصال العقلي المشئوم.

الآن أنا أنظر بداخل عقل الشرير.. (الحاصد) كما يلقبونه من حيث أتى، وكما لم يتوقف لحظة عن التفاخر بذاته.

وكلمة أعين هنا ليست مبالغة مني، لأنني أدركت بشكل ما أنه كائن عظيم القدرة، له أعين كثيرة، وأطراف أكثر.

شيء يشبه أخطبوطًا كونيًا، يتحرك عبر الأبعاد والأزمان والعوالم.

إنه يتحرك في تلك المنطقة الفاصلة بين الحياةوالموت.

شيء شرير لدرجة لم أستوعبها..

شر خام.

إن قائد القطار ليس بشيطان.. إنه شيء يفوق كل الشياطين مجتمعين..

فهو لا يكتفي بالوسوسة وحثك على الشر فقط، بل يمارسه بنفسه، ويجبر الآخرين على ممارسته.

لقد تورطت هذه المرة.

ولا أعرف كيف أواجه كل هذا وحدي!

***

(3)

صاعقة عقلية أصابت عقلي، فشعرت بروحي تزهق، وعقلي يتمزق، قبل أن يهدأ كل شيء وأجد وعي يتجسد بداخل القطار نفسه..

كيف يمكن وصف شيء خرافي كهذا بكلمة قاصرة كـ (قطار).

كنت بداخل عربة واحدة من عرباته..

لم تكن عربة قطار كما تبدو من الخارج..

بل جحيم كامل في حجم كوكب متوسط الحجم، يحتوي على كل ما ابتكرته عقلية هذا المخلوق الخارق من أساليب وطرق وأدوات تعذيب.. بها الملايين من الأسرى المكبلين والمعذبين والقائمين على الخدمة.. وسيئي الحظ الذين وقعوا في طريق الحاصد..

إن صراخ المعذبين وحده، لو سمح له أن يغادر جدران القطار، لتسبب في فناء كل مخلوقات الأرض، بل فناء الأرض نفسها من هوله وعظمته وارتفاعه..

لا أعرف كيف لم أجن إلى هذه اللحظة..

لو واصلت ما أشاهده، من احراق وتمزيق وتعذيب، وقهر، سأجن دون شك.

إن هذا القطار شيء مخيف حقًا..

جحيم صناعي متحرك على قضبان.

دعوت الله أن يكون كل ما أراه مجرد وهم، ولكن عقلي كان يرفض هذا المنطق، أو وسيلة الهروب البدائية هذه..

لقد وقعت هذه المرة في فخ لا فكاك منه.. إن مصيري لن يختلف عن مصائرهم، وربما يكون أشنع.

على البعد شاهدت الألاف من المخلوقات المجنحة، يتم قص أجنحتها تباعًا، بشفرات حادة مشتعلة عن طريق رفاق لهم، وفور أن ينفصل الجناح، ينموا أخر ليتواصل الألم الرهيب.

وبجوارهم بحيرة لا نهاية لها مليئة بمخلوقات صغيرة في حجم الأطفال، تمتليء مرة واحدة بسائل أسود يغلي كالقار، تحترق فيه جلودهم السميكة ببطء شديد، ويتعذبون ويصرخون بلا إنقطاع من شدة الألم. وقبل أن يلفظوا أرواحهم، تكسوهم جلودًا جديدة لتبدأ المعاناة إلى الأبد.

وفي زاوية أخرى، مخلوقات فيروزية اللون، تقوم خطاطيف مسننة حادة، بنزع أطرافهم ببطء شديد، وعندما تتفسخ أجسادهم، تلتئم من جديد ليعود العذاب..

وغيرهم وغيرهم ..

ضجت روحي بما أرى، فصرخت وصرخت وصرخت، حتى انهار عقلي فأظلم تمامًا، قبل أن يعود له الضياء، وأشعر به يستقر، ويعود وعيي ليمتزج بوعي سيد القطار.

الآن أنا أرى بعيناه..

أعايش كل تفاصيل الرحلة المشئومة التي يصطحبني خلالها.

أتابع انطلاق القطار، وقلبي يخفق من الهلع، منتظر اللحظة التي سيتوقف فيها من هول ما أشعر به.

طاقة سلبية رهيبة تحيط بي وتحترق بها روحي، ولكنني لا أملك لنفسي شيئًا غير المتابعة..

القطار الشبحي ينطلق في مساره على نفس القضبان التي يسير عليها قطار الأقاليم الذي يمر بقريتنا، بشكل ما أعرف أنها السابعة والربع، وأعرف أن هذا القطار الملعون يسير في الاتجاه المعاكس بسرعة رهيبة، كما أنه يهدر بشكل عاصف، وكأن كل محركاته عبارة عن مطارق تضرب في ألواح من الصلب لتصدر هذا الضجيج المروع.

عيناي تمسحان الطريق في توجس، وأذناي تسمعان أنينًا مكتومًا بشكل رهيب، مع هسيس غريب متواتر، وكأن هناك من يعذَب ولا يسمح له بالصراخ .

ضوء القطار المقابل يلمع على البعد ..

القطار يهدر ..

صافرته كنواح البومة، تزلزل القلوب .

عندما ظهر القطار المقابل سمعت فحيحًا مخيفًا لم أعرف مصدره، كحيوان ضاري يزوم عند رؤية ضحيته..

ربما هو القطار نفسه..

فما أشعر به أنه يمتلك حياة خاصة هو الآخر.

القطاران يقتربان في سرعة..

أحدهما وحش كاسر، والآخر غافل عن مصيره المرعب.

القطاران يقتربان في ثبات..

عقلي يستعيد مشهد أحد الأفلام الأجنبية، والمخرج يستعرض في مشاهد متعاقبة مقدمة القطاران ..

توقعت أن يتحول الأمر للسرعة البطيئة، ولكن حدث العكس.

فبدون مقدمات تضاعفت سرعة القطار الشبحي؛ لينطلق بشكل مروع، ولجزء من الثانية فقد هيئته الشبحية، وتجسد هيكله المعدني المظلم بشكل مفاجئ، وحدث التصادم المروع، وطار القطار المقابل من فوق القضبان بعد أن سُحقت قاطرته، قبل أن يقف القطار الشبحي بشكل كامل في لحظة واحدة، ودون تدرج في هبوط السرعة.

ثم عادت البرود الشديدة، لتغمر كل شيء.

وانفصل الحاصد عن قطاره، وهبط إلى حيث انقلب القطار الآخرالذي غرق ركابه ما بين صرخات الهلع والألم.

كان هناك، لا أعرف ما هو بالضبط!

كيف يمكن أن تصف الشر الخالص؟

إنه كما وصفته، أخطبوط هائل من الطاقة، يرى بألف عين ولا عين له.

يتحرك ولا أطراف له..

يشم بلا أنف.

يقتل بلا سيف.

إن الكـون يغـص بالمخلوقـات العجيبـة التـي لا يمكـن تخيلهـا أو تخيـل هيئتهـا وقدراتهـا، وهـو نـوع غامـض مـن الزائريـن الذيـن يعتبرون الأرض منطقـة نفـوذ لـه تغـص بالصيـد الوفـير.

يتحرك في المكان دون أن توقفه عوائق..

عـن طريقـه عرفـت أن للخـوف رائحـة، وأنـه يمنـح نشـوة عظمـى، وأنـه يتغـذى عليـه، إنـه مصـاص أرواح كـوني رهيـب، لا يعـرف إلا القـوة..

الظـلام شـديد في تلـك المنطقـة المتطرفـة التـي وقـع فيهـا الحـادث، بـين قريتنـا، وتلـك القريـة التـي تليهـا، وبرغـم ذلـك أرى جيـدًا، عربـة في منتصـف القطـار تشـتعل بشـكل مـروع..

إن عـدم وجـود رقابـة عـلى وسـيلة المواصـلات الداخليـة هـذه، جعلـت أحمـق مـا يصطحـب معـه اسـطوانة غـاز، ولم تنفجـر الاسـطوانة بفعـل التصـادم، ولا بخطـأ بـشري..

بل انفجرت لأن نازع الأرواح أراد لها هذا.

هـل رأيـت مـن قبـل طفـل يحـترق، وأمـه ممزقـة الأطـراف عـلى بعـد مـتر منـه ولا تسـطيع مـد يـد المسـاعدة لـه؟

هـل رأيـت زوجـة فُقـأت عيناهـا، تبحـث بجنـون رغـم الألم عـن زوجهـا الـذي سُـحق تحـت أحـد المقاعـد الثقيلـة..

ذلـك الشـيخ الواهـن الضعيـف الـذي علـق بـين الحطـام وقـد انغرسـت في صـدره قطعـة معدنيـة جعلتـه عاجـزًا عـن التنفـس، وهـو ينظـر بحسـرة إلى علـب الـدواء التـي تلتهـا النـار، والتـي كان يتسـول مـن أجـل شرائهـا لزوجتـه، ونفـس النـيران تقـترب منـه بـإصرار غريـب.

ذلـك الفتـى الـذي كان يقبـض عـلى يـد فتاتـه، دون أن يعـرف أن جسـدها، غـير متصـل بتلـك اليـد.

مشـاهد رهيبـة كنـت أراهـا، وأعيـش ألمهـا دون أن أمتلـك ذرة واحـدة مـن الإرادة لأنفعـل معهـا الانفعـال الصحيـح.

خارج القطار .. تطايرت الأجساد في شكل عبثي مروع.

لوحة مخيفة للموت المهين المفاجئ..

تُرى، بماذا كانوا يحلمون، عندما تمزقت بهم عربات القطار؟!.

القاطرة كانت في حالة يرثى لها.

هل جربت من قبل أن تسحق بيدك علبة مياه غازية؟

جرب في مرة أن تضعها على الأرض وتسحقها بقدمك بكامل قوتك.

هل رأيت منظرها؟

تخيل الآن أن بداخلها السائق البدين ومساعده العصبي..

لم يكـن لديهـما أيـة فرصـة للـصراخ، قبـل أن تختلـط لحومهـما وعظامهـما بمعـدن القاطـرة، الـذي سُـحق، واحتـوى بداخلـه انفجـار المحـرك.

لن يستطيعوا بأي حال من الأحوال جمع أشلائهم أو دفنها..

الكيان الأخطبوطي الشرير يتحرك..

إنـه لا يمتـص فقـط الطاقـة السـلبية الرهيبـة الناجمـة عـن لحظـات الهلـع والاحتضـار، بـل يمتـص ذاكرتهـم وذكرياتهـم..

ثـم يشـير إلى بعـض ركاب القطـار، فيهبـون عـلى أقدامهـم، ويشـكلون صفًـا طويـلًا، ويتوجهـون صـوب القطـار..

إنه يجمع غنائمه..

لقد نجا من مات من مصير مظلم، ومن بقي على قيد الحياة، مصيره عذاب أبدي لا نهائي..

ماذا أقترف هؤلاء ليكون هذا مصيرهم؟

وما جريرتي ليكون هذا مصيري.

ثم ما الهدف من كل هذا؟!

البرودة تتزايد..

عقلي يغلي في رأسي..

المشاهد تنعكس وكأنك تقوم بترجيع شريط فيديو ..

القطار المهشم يعود لحالته الطبيعية بسرعة رهيبة، الجثث المتناثرة من داخله تعود لأماكنها..

النيران تنطفئ..

القطاران ينفصلان ويعود القطار الشبحى إلى سيرته الأولى..

ظلام ثم نور..

ثم يعود وعيي إلى عقلي لأرى نوارة تقف أمامي على محطة القطار وسط الضباب، والقطار الشبحي يزوم بجواري..

بشكل ما لم ينفصل وعيي تمامًا عن وعي ذلك الكيان الأخطبوطي الشرير.. الآن أعرف أنه أختارني لأنني مميز، ولأنني أشع طاقة سلبية هائلة؛ فروحي تشبعت بالموت. وقد وصمني مندوبه اللعين كي يحصدني سيده في وقت، لأنني سأكون وقودًا جيدًا لقطاره..

لماذا لم يجبرني على ركوب القطار، كما فعل مع ضحاياه السابقين، الإجابة كانت تكمن هناك في أعماق عقله، وعرفتها قبل أن أغادره..

إنها القوانين التي وضعها من هو أعلى منه، تمنح لمن يتم وصمهم- وهم المميزين- فرصة ليقاوموا مصيرهم، وهذا كان تمهيدًا، لخوضهم اختبارات أخرى، تصنع منهم في النهاية زبانية في هذا الجحيم المتحرك.

لهذا كان من يعذبون المخلوقات المجنحة هم رفاقهم.

و...

- «هلم اصعد إلى القطار.. رحلتك لم تبدأ بعد»

الصوت صوت نواره، ولكن وقعه على روحي رهيب.. ومن أعماقي أيقنت أني لن أسمح لنفسي بركوب قطار الجحيم هذامهما كان الثمن.. لن أحيا ما تبقى من عمري.. أعيش لحظات الموت والخوف والألم.

لن أصير شبحًا كآلاف المخلوقات التي يغص بها القطار، والذي لا تمضي لحظة واحدة دون أن يتعرضوا لعذاب رهيب أو يمارسوه؛ لمنح القطار وقوده الجهنمي من الطاقة السلبية.

أواجه نوارة وأبثها أفكاري التي نقلتها لنازع الأرواح، دون أي إضافة، وكانت رسالتي واضحة:

- «الموت أهون من أن أستقل هذا القطار الملعون.. إن أراد قتلي فليفعل، ولكن قدماي لن تخطو خطوة واحدة نحو هذا المصير المروع، الموت أهون وأقبله بصدر رحب».

صوت نوارة يزلزل وجداني:

- «نحن لن ننتظر إلى الأبد.. وأنت معنا لا محالة.. أنت الراكب القادم الذي لن يغادر القطار مجددًا.. إنها قوانين سيد القطار .. قوانين وضعت كي لا تكسر»

للحظة دوت في عقلي الفكرة ..

وعلى أثرها رددت بغير وعي :

- «القوانين .. أنا كنت بداخل عقلك، وأعلم برغم كل شرورك أن لديك قوانين وضعها سيدك، وتلتزم بها.. أنت لست حر بشكل كامل، ولست نصف إله كما خيل لي في البداية»

قلتها ثم ابتلعت ريقي وأكملت:

- «لتعلم أيها القاتل البغيض.. أنني لن أستقل هذا القطار.. وأنك ستغادر دون تذكار جديد من قريتي»

الصوت الغاضب من نوارة:

- «لا أحد يكسر إرادة سيد القطار.. لا أحد».

أنظر للقطار الذي أخذ يزوم في سخرية وأقول:

- «قوانينك هي التي ستمنعك.. وقانونك الأول أنه لا أحد يغادر القطار.. وأنا عقليًا ركبت القطار.. وعشت رحلته السابقة ثم غادرت.. أنا خارج منطقة نفوذك، وخارج سطوة قوانينك».

زئير رهيب ينطلق من بين شفتي نوارة فأُكمل قائلًا:

- «شروطك لن تنطبق علي .. ربما في رحلتك القادمة تكون أكثر ذكاءًا».

كنت أستفزه لينهي الموقف.. لينصرف؛ فروحي تضج بوجوده، وقلبي يكاد يتوقف من الهلع رغم الشجاعة الكبيرة التي أدعيها، فأنا أعلم أنه بشكل ما يخضع للقوانين، إنه يخدم كيانًا أكبر وأعظم شرًا..

إننا نجهل طبيعة الشر خارج عالمنا..

وما أدركته في رحلتي هذه.. أن هذه الشرور المروعة ستطالنا جميعًا في يوم من الأيام..

نباح كلاب عديدة يأتي من بعيد.. لابد وأنها تحذر بعضها من الاقتراب من محطة القطار، كي لا تقع ضحية لنازع الأرواح الشرير..

صوت نوارة الغاضب يقول في إحباط:

- «القوانين منحتك فرصة، ولكن لتعلم أنها الأخيرة، لأنني سأعود.. وهذا ما تنص عليه القوانين أيضًا».

تذكرت مشهدًا رهيبًا في أحد الأفلام، عندما أحرقوا الشيطان، وقبل أن يموت تمامًا، أخبرهم أنه سيعود، وأذاقهم الويل في ثلاثة أجزاء تالية.

ولكني لا آبه بالقادم.. ما يعنيني أن أخرج من هذا الفخ الآن فروحي تتفتت من البرد والمشاعر السلبية المحيطة بي.. أتحرر.. وأمت بعدها بلحظة.. فقط لأشعر أني أقل دنسًا، وأكثر حرية من هذا.

القطار يهتز ويخور كوحش في سبات منذ قرون وحان أوان استيقاظه ..

الهسيس يتصاعد..

الصراخ يدوي في المكان..

كان هذا مصيري.. ونجوت بفضل غباء الشرير ..

صافرة القطار الناحبة تنطلق ..

القطار يهدر ..

عجلاته تدور وتغادر ..

الظلام ثم النور .

الضباب يتلاشى ..

نـوارة تسـتفيق لتسـألني عـما حـدث، فأخبرهـا بصـوت يمـوج بـكل المشـاعر السـلبية، والإحبـاط:

- «لقد ذهب»

تردد في فرحة:

- «ذهب»

فأقول في يأس:

- «ولكنه سيعود».

***

عن أي شيء يا ترى كان الحديث؟
عن هرة أكلت بنيها!
رباه.. كم أحببت عينيها

«إحباطات شعرية»
نجيب سرور

البقعة الباردة

(1)

كانـت مغامـرة رهيبـة، لم أشـعر خلالهـا بلحظـة سـعادة واحـدة، وكأن الكـون كلـه قـد تحـول لمقـبرة لا بـاب لهـا، ولا يعـرف سـاكنوها الأمـل.

امتـزاج وعيي بوعـي الحاصـد الغامـض، جعـل نـوع مـن الذنـب غـير المـبرر يتسـلل إلى روحـي تجـاه ضحايـا القطـار، وطريقـة موتهـم البشـعة، التـي لم تفـرق بـين رجـال أو نسـاء أو أطفـال.

الجثـث المسـحوقة، والأعضـاء المبتـورة، والبطـون المبقـورة سـتطاردني بشـاعتها مـدى الحيـاة.

كـما أن ذكريـات ذلـك الكائـن الملعـون سـتظل هنـاك إلى الأبـد، عالقـة بأعـماق عقـلي؛ تعذبنـي وتخـبرني كل يـوم، أنـه سيعود مـن أجـلي في يـوم مـا، وسـيكون غاضـب بشـدة.

إنـه يمثـل ذلـك النـوع الخبيـث مـن المصائـر والنهايـات التعيسـة، التـي لا يتمناهـا المـرء حتـى لأعدائـه.

والمـروع في تلـك الأحـداث التـي مزقتنـي نفسـيًا، أنـه أثنـاء تلـك الرحلـة البغيضـة عـلى متـن ذلـك القطـار الشـبحي الملعـون، كنـت أشـعر بشـكل كامـل أننـي هـو ..

أنا الشرير..

أنا الحاصد..

أنا القاتل ..

وهذا كان مرهق، ومدمر للأعصاب بشكل مخيف.

أنا قاتل، ينتظر نهاية مروعة؛ الموت لن يكون أشد وطأة منها..

ما الذي يحدث حقا؟!!

لا شيء طبيعي أو مقبول في كل ما يحدث لي وحولي!

استرجعت كل الأحداث الأخيرة في ذاكرتي، وأيقنت أنني ملعون بشكل كبير، وليس مجرد نحس، وأن حياتي تتحول مع الوقت لسيل من الكوارث، وأنني أنجو من كل هذه المصائب لأن الأسوأ لم أواجهه بعد، بل ويتربص بي.

وهذا جعل منحناي النفسي في الحضيض، لدرجة أنني أصبحت أشتاق للسلام والهدوء اللذين كنت أجدهما في تعاملي مع الموتى، قبل أن تبدأ كل تلك الأحداث المريعة التي أصابتني وأصابت قريتي.

لست وحدي الملعون إذن.. بل قريتي كذلك!

بشكل غامض، أصبحت قريتي التي لا أهمية لها على خارطة التاريخ، مغناطيس هائل يجذب كل كوارث الكون، على رؤوس قاطنيها.

وهذا جعلني أفكر في غير هدى..

أهي لعنة تهاني الغجرية ؟ أم أن تهاني أثر جانبي لها؟

تهاني كانت تحيط نفسها بالجماجم، وبخدم لا رؤوس لهم لأنها كانت

تخشى ذلك المخلوق الرهيب الذي فتك بها في النهاية..

فهل عبثت بما لا يمكنها السيطرة عليه ؟

هل جلبت الشؤم لقريتنا وساكنيها؟

أم أنها ضحية هي الأخرى لشيء أكبر أجهل عنه كل شيء ؟

هل هي سبب نحسي ووصمي؟

لا يوجد متهم آخر أمامي .

الأمر أصبح محيرًا ومقلقًا بشكل مثير للهلع، لم تعد أسرتي وحدها في مرماه، بل أصبح الخطر يحدق بالجميع وفي وقاحة، ولن يكون شقيقي عبد الهادي آخر ضحاياه.. هو فقد جزءً ثمينًا من جسده..فماذا سأفقد أنا الآخر؟.

اللعنة!!..

عقلي لا يتوقف لحظة واحدة عن رجمي بتلك الأفكار الجهنمية..

إما إنني أصبحت جبانًا بشكل لا يتصوره عقلي، أو أن حاستي السادسة تشم في الأجواء رائحة غير مقبولة.

حدس غامض بداخلي ظل يلح علي بأن أُحذر الجميع من الهول القادم، ويحثني على أن أهجر قريتي مع أسرتي، وكل من أهتم لأمرهم، ولكن هل هو حل متاح؟

الأيام التالية كانت هادئة.. وإن لم تخلُ من السخافات، فردة فعل كل شخص كنت أخبره بمخاوفي والخطر المتربص بنا، كانت تصيبني بنوع متقدم من الإحباط.

فالجميع ينظرون إليّ على أنني شؤم من الأساس؛ بتعاملي مع الموتى وعملي كحانوتي، وبحديثي الجنوني هذا عن الخطر المجهول؛ أضافوا إلى هذه النظرة صفة العته والخبال..

البعض أخبرني أني لو لم أتوقف عن طريقتي الهستيرية هذه، سأصير درويشًا آخر، وهو لفظ منمق كي لا يخبرونني بأنني في طريقي لأكون مجذوبا.

ثم تذكرت حمدان.. غريب آخر عن قريتي، التي أصبحت تعج بكل ما هو غريب ومريب..

ظهر في طرقاتها بعد العاصفة.. وأصبح أحد معالمها الرئيسية.. ولم يكن ليلفت انتباهي، لولا ما مررت به ..

وحمدان، ذلك الشخص البدين، ضخم الجثة خبيث الرائحة، يطلقون عليه لقب الدرويش..

وهو لقب يليق به تمامًا.

ربما هو يختلف عن عبيط قريتنا الذي أعتدنا وجوده منذ طفولتنا، بملابسه النظيفة عديدة الطبقات، وبعمته الخضراء الضخمة، وذلك العدد الكبير من السبح التي يرتديها حول عنقه.

ناهيكم عن تلك السبحة العملاقة، التي لا يتوقف دورانها حول أنامله وهو يردد بلا انقطاع: -ياودوووود...يا ودود..- بنفس الطريقة الممطوطة التي تميز المجاذيب.

كما أنه يصطحب معه هرة سوداء ضخمة مثله، منفوشة الفراء متحفزة بشكل دائم ومقلق، تتبعه كظله.

لا أعرف لماذ كنت أربط بين الدراويش والمتصوفين والجنون؟

شيء غامض بهم يخبرني إما أنهم يعيشون في عالم من الهلاوس، أو أنهم يرون أشياء لا نراها، والتي أصابت عقولهم بهذه الخفة.

- «اهربوا.. اهربوا.. الموت والخراب حلّا.. البوابة مفتوحة على مصراعيها ولن يغلقها إلا الدم «؟

كانت هذه هي الكلمات الأولى التي أسمعها من الدرويش منذ زمن، فلم يصدف أن تقابلنا منذ عدة أسابيع.

كلمات تدل على أن توقعاتي كلها سليمة للأسف.. هناك شيء ملعون يدور في القرية، وكما يقول المثل الشعبي خذوا الحكمة من أفواه المجانين.

وأضيف أنا أنه لا دخان بلا نار.

وأنا قد احترقت كثيرًا لأدرك أن تحت الرماد نار عظيمة، تنتظر فقط الوقت المناسب لتحرق الأخضر واليابس.

رآني الدرويش فحدق في وجهي بذهول، وكأنه يرى نذير الموت والخراب، ثم تحفزت هرته ووقفت في تلك المسافة الفاصلة بيننا، وكأنها تذود عن سيدها.

لم تكن هذه الملعونة تحمل وجه هرة غاضبة بل وجه شيطان رجيم، وهذا جعلني أتلفت حولي بحثا عن سلاح من أي نوع أذود به عن نفسي، وبالطبع لم أجد إلا نصف قالب من القرميد فتسلحت به.

لو عبر أحدهم ورأى مقدار خوفي من الدرويش وهرته اللعينة، لصرت فكاهة القرية لزمن طويل، ولكنني لن أجازف.

بادلت الدرويش نظرات متحدية، فزاغت نظراته، ونظر للسماء كأنما يتلقى وحيًا من نوع ما، قبل أن يشير لنصف قالب القرميد الذي

أقبض عليه بيدي في وضع غير مريح، ليستحيل إلى كومة من التراب المتناثر لوثت ملابسي، وجعلتني أسعل مرتين، وأنا أشيح بيدي لأبعد ذراته المتناثرة عن عيني.

أما ما أصابني بالجنون حقًا، فتلك الكلمات التي قذفها في وجهي عندما تلاقت أعيننا مرة أخرى:

- «عليك أن تصدق حدسك يا ابن أبو هاني.. البوابة مفتوحة.. والموت آت، لا تدفن أبا سالم.. لا تعجل بالخراب».

صدمتني كلماته بشدة، وأنا أتأمل هرته التي كانت تنظر نحوي في كراهية، وتقترب مني ببطء مهدد.

إنني أكره القطط بشكل عام ..

والآن صرت أكرهها أكثر..

تراجعت للخلف وعيناي على الهرة الخبيثة، وكلمات الدرويش تدوي في أذني. فالأمر الآن له شقان!!

الأول إما أن حديثه هذا مجرد تخاريف شخص مخبول، وعلي فقط أن أتجاهله، وهو ما لا يرتاح له قلبي.

و الشق الثاني أنه يتحدث عن علم نجهله نحن العقلاء البسطاء، وكلا الأمرين يضعاني في مأزق شديد، فلن أستطع بأي حال من الأحوال أن أتجاهل نداء الواجب، خاصة وأن أبا سالم من خيرة أهالي القرية، فهو محفظ للقرآن، ومؤذن المسجد، والمشرف على الجمعية الشرعية، وله سمعته التي تسبقه.

وهنا توقفت عن التفكير للحظة، وصورة أبي سالم بوجهه البشوش، وملامحه الصافية المليئة بالإيمان تسطع في عقلي، وتحتل كامل تفكيري، فأبو سالم حي يرزق ..

هو من صلى بنا الفجر ..

وبالتأكيد هو من سيصلي بنا الظهر.

إن هذا الدرويش يخرف.. وعقلي المرهق هو الذي يعبث بي ..

ولا أعرف لماذا رفعت عيني نحو مئذنة المسجد القريب؛ كأنني أنشد منها عونًا أو إجابة!

ثم جاءت الإجابة أسرع مما أتوقع أو أحتمل من الميكرفون المعدني الضخم الذي يعلوها..

لم يكن هذا وقت الأذان ..

لم يكن موعد تواشيح أو درس ديني أو عقد قران.

وجاء صوت متحشرج باكي ليصدمني، وينعي إلى القرية، وفاة أبيه..

كان الصوت الباكي صوت سالم أبو راية ..

لقد مات بالفعل أبو سالم ..

مات إمام القرية ..

مات الشخص الوحيد الذي حذرني الدرويش من دفنه..

وعندما التفت بأعين جاحظة ممتلئة خوفا ودهشة إلى حيث كان يقف الدرويش بهيئته الضخمة ..

لم أجده..

ولم أجد هرته الخبيثة..

وكأنهما تبخرا من المكان.

بينما ظهرت نوارة في المكان، وهي ترمق مكان اختفائهما بدهشة عظيمة.

* * *

(2)

- «لقد ذهبوا».

كانت هذه أول الكلمات التي قطعت صمت المكان، بعد أن توقف عويل ميكرفون المسجد الذي صدمني بالخبر الكئيب، فهو لا يعني لي رزق جديد، بل فخ أقود نفسي وربما جميع من بالقرية إليه.

استدرت لأواجهها وقلت:

- «لأين ذهبوا يا نوارة.. لأين ذهبوا؟».

نظرت نحوي بحيرة وقالت:

- «لا أعرف.. ربما إلى البرزخ».

نظرت لها في غير فهم، فالبرزخ فكرة لا أستسيغها، فعقلي لا يقتنع بوجود مكان تتجمع فيه الأرواح بانتظار يوم الحساب، الأرواح تعود لملك الأرواح، كما أن حمدان وهرته لا يشبهان الأرواح كما أتخيلها.

لا توجد أرواح تلتهم كل هذه الكمية من الطعام التي كان يلتهمها ذلك المجذوب وهرته في شوارع وسوق القرية، كما لم أعرف أن البرزخ يضم الحيوانات أيضًا.

قرأت نوارة ما يدور في عقلي ثم قالت:

- «لا ليس هذا البرزخ.. البرزخ الآخر مخيف، ومحرم علي دخوله».

صدمتني إجابتها كالمعتاد؛ فسألتها في قلق:

- « هل تقصدين أن هناك برزخ آخر يا نوارة.. وإن كان هناك فلماذا يذهب إليه ذلك المجذوب وهرته، ولا تستطيعين أنت الذهاب إليه، وما معنى أنه محرم عليك؟».

شحب وجهها أكثر من شحوبه المعتاد وقالت:

- «إنه بقعة باردة».

قليلة الكلام هي نوارة، لابد أن أنتزع منها المعلومات انتزاعًا، وهذا جعلني أقترب منها وأقول:

- «وما هي البقعة الباردة يا نوارة؟».

صمتت قليلا، وكأنها لا ترغب في الخوض في هذا النقاش وقالت:

- «إنها تلك البقعة التي يخشاها كل العابرون أمثالي».

نظرت لها في غير فهم وقلت:

- «هذه ليست إجابة يا نوارة، أريد أن أفهم أكثر ،عقلي يكاد يجن».

تنهدت نوارة في ضيق ثم قالت:

- «إنها ثغرة.. ممرٌ مخيف لا يعبره إلا أكثر أهل الكون شرورًا.. قريتكم تحولت إلى مهبط لكل أنواع الشرور، بعد أن عبثت بالثغرة أيد جاهلة، وعلى إثرها، ظهرت البقعة الباردة، وتحتاج فقط لمحفز، كي يعبر منها شر رهيب.. إنها تطل مباشرة على جحيم الممسوخين».

اللعنة يا نوارة، كل معلومة تضيفينها لي تزيد حيرتي وجهلي، إن خوفك الشديد هذا يقتلني، ولكنني يجب أن أعرف ما أواجه.

قرأت أفكاري وأكملت:

- « ولكن لا أحد يستطيع أن يواجه هذا النوع من الشر، إنه لا يعني سوى نهاية هذا العالم الذي تعرفه».

هل أكف عن التساؤل أم ماذا أفعل؟

إن كان كل ما مررت به من كوارث وأخطار فوق طبيعية، لا تراه نوارة خطرًا بجوار هذا الخطر القادم من جحيم الممسوخين، الذي لا أدري من مسخهم، ولأي سبب..

فأي هول آخر قادم، وما علاقته بأبو سالم؟!.

إجابتها غير المريحة تجتاح مسامعي:

- « كل شيء في هذا الكون له علاقة ببعضه البعض، هذه البقعة الباردة تجسدت في عالمك، وأبو سالم مفتاحها، فالخير العظيم أحيانًا يكون هو قربان الشر، طريق الجحيم مفروش دائمًا وأبدًا بالورود».

قلت بسرعة:

- « أهذا يعني أن علي ألّا أدفن أبو سالم، هل كلام الدرويش حقيقي؟ ».

حدجتني بنظرة باردة وقالت:

- « بل عليك قتل الهرة.. إنها المفتاح».

الآن الأمور تتخذ منحنى جنوني بالفعل، نهاية العالم يحذر منها درويش مجذوب، وإيقاف أشراطها وعلامتها، يتم عن طريق قتل هرته المخيفة، الأمور تظهر بسيطة، ولكنها معقدة بشكل محير.

دوت الفكرة في عقلي فسألتها:

- « وما هو جحيم الممسوخين هذا.. ومن هم هؤلاء الممسوخين؟».

أجابت في شرود:

- « إنهم نوع من الشياطين.. التي لم ترض عن هيئتها، فمسختها وبدلتها، بعلم قديم، اندثر مع عبدة الأوثان الذين أوجدوه، في مجرة بعيدة»

أجبت في دهشة:

- « وكيف وصلت شياطين عالمي إلى هذا المكان البعيد»؟

نظرت نحوي بنظرة خائفة، فلم أضف كلمة لأحفزها على الحديث، وأنا أنظر لملامحها التي بدأت تتشوه بفعل بكتيريا النيزك، والتي ستحولها في وقت قريب إلى مسخ حقيقي فقالت:

- « أنا لا أتحدث عن الشياطين التي تعرفها أنت.. إن شياطين عالمك ودعاء، وشرهم محدود بالنسبة للهول الذي أتحدث عنه.. لكل عالم شياطينه الخاصة التي تعمل على إفساده على قاطنيه طوال الوقت.

ولكن هذا العالم لا يحتوي إلا على الشياطين فقط .. شر خالص مطلق، مخلوقات تمارس الشر للشر وتعيش عليه وتتغذى به.. حتى أنهم صنعوا جحيمًا خاصًا بهم، يقومون بداخله بتعذيب أعدائهم - والكون كله عدو لهم- أنت لم تعرف شيء عن عالمي.. نصف كواكبه ومخلوقاته نزلاء في هذا الجحيم ويبدو ...».

قالتها ثم توقفت فهززت رأسي أحثها على قص باقي الهول فقالت:

- « ويبدو أن وقت عالمكم قد حان».

معتقداتي الدينية تخالف كل ما تخبرني به نوارة، نهاية العالم لن تكون

بهذا الشكل، لن يكون هناك جحيم إلا في العالم الآخر.. لا عذاب قبل الحساب، حتى عذاب القبر نفسه لا أؤمن به لنفس السبب، لأن عدل الخالق العظيم لن يجعلك تتعذب قبل أن تحاسب وتدرك لماذا تتعذب؟

ابتسمت نوارة.. وللمرة الأولى أكره ابتسامتها، عندما قرأت كل هذه الأفكار وقالت:

- « مهما كان مقدار معرفتك عن الكون.. فلن تعرف أبدًا ما هو قادم.. وأي هول قد يسبق الموت أو يليه.. الإنسان كائن التهمه الغرور، حتى الغيب يريد أن يتدخل فيه.. ربما جحيم الممسوخين تمهيد لجحيم أكبر».

كلماتها فلسفية عميقة بالفعل، ربما ما يحدث هو جزء مما هو مقدر، وبدون شك فالبشر يستحقون على فسادهم وشرهم أن يحشروا فيه بلا حساب.

ابتسامتها من جديد..

شيء ما بأعماقي مازال يراها حب حياتي، القلب ينبض بمشاعر لا نهائية لها، هل لأن روحها تشبه روح الطفلة، هل لأن عشقها وقربها مستحيلان، هل شفقة عليها لأنها غريبة ووحيدة في عالمنا.

ربما لكل هذه الأسباب..

وهنا دوى صوتها ليرج كياني:

- « لم تتغير أبدا يا حبيبي.. كلما أصابك الخوف.. هربت منه إلى نوارتك.. أنت تحبني فقط لأنك تحبني.. الحب لا يحتاج لأسباب.. لأنه لو كان هناك سبب لانتهى بزواله».

أبتسـمت مـن أعماقـي وكـدت أنسـى كل شيء عـن البقعـة البـاردة، التـي تقـود إلى جحيـم الممسـوخين اللذيـن لا ينتمـون لعالمنـا، ثـم قلـت:

- « نعـم أحبـك يـا نـوارة.. أحبـك برغـم كل مـا بيننـا مـن حواجـز وقيـود.. أحبـك بـدون سـبب ولـكل سـبب و..».

- «أمـا زلـت تتحـدث إلى عفريتتـك.. أقسـم بـالله أنـك سـتجرس عائلتنـا في يـوم مـا بسـبب جنونـك هـذا، وسـتوقف حـال إخوتـك البنـات.. فلـن يتـزوج أحـد شـقيقة مجنـون يتحـدث إلى الهـواء «.

كان هـذا صـوت شـقيقي عبـد الهـادي، الـذي ولابـد قـد أتـى إلى المسـجد لإعـداد النعـش وتطهـيره، فنظـرت لـه مبتسـمًا، وإن كان الضيـق قـد ظهـر عـلى وجـه نـوارة؛ لأنـه قطـع وصلـة الغـزل المفاجئـة هـذه وقلـت:

- « أنا لا أتحدث إلى أحد.. أنا فقط أدندن».

رمقني بنظرة ساخرة ثم قال:

- « دندن يا وحيد».

مازالـت رؤيتـي ليـده الخشـبية تثـير في روحـي الضيـق والألم والشـفقة، إن أخـي عبـد الهـادي وسـيم، ويلفـت انتبـاه النسـاء في أي مـكان يظهـر فيـه، فلـماذا أبتـلي بتلـك العاهـة.

لاحظ شرودي فقال:

- « لقد مات أبو سالم وعلينا دفنه».

أخرجتني كلماته هذه من دوامة أفكاري فقلت:

- « وهل علينا فعل هذا؟».

نظر نحوي بغير فهم ثم قال:

- « هل أصابك الخبال.. وماذا نفعل مع الموتى سوى دفنهم؟».

الغباء واضح على وجهي، وأنا ملتزم الصمت، مما جعله يستطرد:

- « هل صرت هندوسيًا، وترغب في حرق الجثمان؟».

دوت الفكرة في عقلي وقلت:

- « ولما لا نحرق الجثمان بالفعل؟».

ظهر غضب رهيب على وجهه وقال:

- « رجل صالح مثله تتمنى حرقه.. أحرق الله أفكارك هذه في نار جهنم».

نظرت له في تضرع وقلت:

- « لقد أخبرني الدرويش ونوارة أن ...».

أشار لي في غضب مروع وقال:

- « تحرك أمامي لنقوم بعملنا.. ولا تلفظ بكلمة عن هذا الرجل الطيب، أو عن أي من مجاذيبك هؤلاء».

لا مفر إذن..

كل شيء يقودني نحو المصير المرعب.

ومع نهاية كلماته اخترقت نوارة حائط قريب، واختفت وعلى وجهها أمارات ضيق شديد، واعتصرت قبضة باردة قلبي، ونظرت نحو السماء أنشد منها العون..

(3)

بيت أبو سالم من البيوت المميزة بتعدد طوابقها، فلديه ذرية لا يمكن حصرها لأنه تزوج على مدار حياته خمسة من النساء ذوات الأرحام الخصبة الائي لم تتوقف أي منهن عن منحه طفل جديد كل عام..

ولكن الشيء الذي يميزه أكثر من تعدد طوابقه، هو ساحته التي كانت مفتوحة دائما للمسافرين وعابري السبيل، هذا غير أنها ظلت تحتوي كل عام على أكبر مائدة للرحمن في شهر رمضان..

البيت كله مطلي بالجير الأبيض، وعليه تلك النقوش البسيطة التي تمثل باخرة وطائرة ومجسم للكعبة المشرفة..

بيت يشبه العديد من البيوت القديمة، ولكنه كان يتميز بنسيم دائم، وبراحة نفسية كانت تكتنف كل من يقترب من أسواره، وكانت جدتي تخبرني أنها البركة..

لأنه وعائلته من العارفين بالله، يمتد نسلهم إلى الأشراف.

الآن أنا أدخل البيت بروح مثقلة، سحابة الحزن مع الروع التي تسكنني، تجعلني أشعر بأنني داخل إلى قبري، وأني بوجودي هنا أكتب شهادة وفاة الجميع .

علي أن أقتل القطة .. فأين القطة؟ .. مع الدرويش .. وأين الدرويش؟ قد ذهب مع القطة .. وأين ذهبا معا؟ .. إلى البقعة الباردة .. التي هي بالمناسبة ومع برودتها .. بوابة لجحيم الشياطين.

هل أنا أهذي؟

أم أن الجنون أصاب العالم .. فأصبح هو الشيء الوحيد المنطقي.

تحدثت نوارة عن جحيم الممسوخين، والتي أتخيل كونها أحد مخلوقات كوننا المزدحم بشعة الخلقة والخُلق.

وتحدث الدرويش عن البوابة المفتوحة التي ستجلب الخراب.

وبوابات الجحيم ليست فكرة دخيلة على الثقافة البشرية، لقد قرأت عنها الكثير والكثير.

إن بوابات الجحيم على الأرض عديدة وشهيرة، ويليق بها وصفها. فهناك وادي جهنم في القدس، الذي كان مركزا للأضحيات في الفترة الوثنية حيث كان يتم إشعال نيران هائلة بأرض الوادي، وإجبار الأطفال على عبور المكان الذي حولته النيران إلى جحيم، وسط ضربات الطبول التي كانت تخفي أصواتهم أثناء إحتراقهم عن ذويهم.

وهناك حفرة الجحيم في تركمانستان التي تشتعل نيرانها منذ عام1971 والتي صارت مزارًا سياحيًا بعد فشل السلطات المحلية في ردمها، أو إطفاء نيرانها التي أشعلوها بأنفسهم معتقدين كونها مجرد جب للغاز.

وقلعة هوسكا الموجودة على بعد47 كيلو متر من براج في جمهورية التشيك، والتي شاهد الناس عندها أشياء مرعبة ومفزعة، وشموا

روائح كبريتيه كريهة، ورأوا أشباحًا وأطيافًا وخيالات مروعة، تمرح هناك وتصرخ وتطارد البعض،

والتي يشاع أنها بنيت في هذا المكان المهجور لتغلق ثغرة للشياطين.

والآن وفي مصر .. وهنا في قريتي .. نبتت بوابة أخرى للجحيم، وسيفتحها على مصراعيها، دفن أبو سالم الرجل الخلوق التقي،

فهل لهذا علاقة بنسب عائلتهم الشريف؟.

وهل كونهم من العارفين بالله سيكون له أثر رئيسي في تصدع الجدار الفاصل بيننا وبين جحيم الشياطين المخيف هذا، على الرغم من عدم منطقية هذا الفرض.

فكيف يتحول أحد أعمدة الخير في قريتنا إلى نذير حقيقي للشر والخراب.

الآن أنا هناك فهل سأكتشف حقيقة الأمر؟!

غرفة أبو سالم التي وضع فيها الجثمان، هي صومعته المنزلية التي كان يتعبد فيها، ويقرأ القرآن، ويؤدي نوافله.

الغرفة بسيطة، لها أربعة جدران اثنان منهم يمثلان مكتبة عظمى تغص بكتب التراث وأمهات الكتب الدينية، كصحيح البخاري، وتفسير الجلالين، وغيرها .

الجدار الشرقي عليه آية قرآنية غير شائعة في المنازل كتبت بخط يدوي محترف، وأحيطت بإطار مذهب:

- (وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ).

لا أعرف لماذا عندما قرآت هذه الآية توتر جسدي، وكأنها كانت تحذير مستتر عن شر كامن.

الجدار الرابع كان هو الشيء العجيب.

الجدار كان ككامل البيت مدهون بطلاء جيري أبيض اللون حال لونه في بعض الأماكن، ولكن هنا على هذا الجدار، بدا وكأنه ملوث بالسناج والدخان، وكأنما كان يحرق بجواره شيء ما أو كمية هائلة من البخور.

رسم الدخان خطوطا متقاطعة كونت مايشبه مدخل باب خفي، أحاطت به نقوش مبهمة غير واضحة. الإضاءة الشديدة كانت تبرزه.

لفت الأمر نظري بشدة، ولفت نظر عبد الهادي الذي قال، وهو يبدأ في تعرية الجثمان:

- « هل ترى ما أراه على هذا الحائط الغريب؟».

عدت ببصري للجدار وقلت:

- « الباب والنقوش الدخانية؟».

استدار ليواجهني، وظهرت على وجهه الدهشة الشديدة وهو يقول:

- « بل الوجه المرتسم بالدخان على الجدار.. وجه الهرة.. كيف يتواجد رسم بهذا القبح والشناعة في صومعة رجل دين تقي كأبي سالم!».

إن لرجال الدين قداسة خاصة عند شقيقي عبد الهادي، كما هو حالهم عند الجميع في قريتنا، لذا كان ما يتحدث عنه يثير ضيقه ودهشته.

عدت أتأمل الجدار محاولا توصيل الخطوط والنقاط كلعبة الأطفال القديمة لأرى الهرة التي يتحدث عنها دون جدوى..

الأمر يشبه السحاب المار في السماء، العقل الباطن يخيل لكل شخص هيئته على أحد الأشكال التي تشغل باله.. لا ضير في ذلك، أنا تشغلني بوابة الجحيم، وهو ربما رآى هرة !!!!

هرة الـ......

- « الدرويش».

قالها عبد الهادي وهو ينظر للجدار في هلع فرددت عليه دون وعي، فلم أعلم كيف قرأ عبد الهادي أفكاري بهذه السرعة:

- « نعم هرة الدرويش».

ولكن عبد الهادي أكمل في هلع:

- « الدرويش يخرج من الحائط.. أي سحر ملعون هذا؟».

عدت ببصري للجدار، فرأيت الباب الدخاني يفتح، ويدخل منه الدرويش وهرته المنفوشة الفراء، بهيئة دخانية عجيبة، فاحتبس الكلام في حلقي ولم أستطع التفوه بكلمة واحدة..

وفي عقلي كانت هناك فكرة واحدة.

لقد عاد الدرويش وهرته من بقعتهم الباردة ليفتكوا بنا، ويمنعوننا من تجهيز الجثمان ودفنه.

تجسد الدرويش أمامنا في هيئة مختلفة تمامًا، عما كنا نراه بها في شوارع قريتنا المكلومة..

كان أطول، له عينان مضيئتان بشكل عجيب وسط هيئته الدخانية المخيفة، وبجواره تفح هرته التي صارت بحجم كلب ناضج، وكان من الواضح ما ينويان عليه.

تملكتني شجاعة مفاجئة فقررت أن أتقدم لمواجهتهما.. ولكن عبد الهادي أخبرني أن أتراجع كي لا أحترق بنيرانهما ..

للحظة لم أفهم ما يقول، ثم توهجت الفكرة في عقلي، ما يراه عبد الهادي، غير ما أراه أنا تمامًا..

هناك نوع من الوهم يسيطر على عقولنا، ولكن تعاطي كل عقل معه كان مختلفًا..

فما أراه دخان .. يراه هو نار عظيمة..

وبكل ما بداخلي من توتر تراجعت، فصرت بجوار شقيقي عبد الهادي، خلف المنضدة المعدنية التي يقبع فوقها الجثمان الفاقد للروح..

وقبل أن يأتي أي منا بردة فعل حقيقية، تلاشى الدرويش والهرة من مكانهما وظهرا مباشرة أمام الجثمان.

أشار الدرويش للهرة فانقضت على الجثمان لتغرس فيه أنيابها ومخالبها.

وهنا حدث أغرب شيء يمكن تخيله..

انتفض الجثمان الميت، وكأنما أصابه تيار كهربي عالي الجهد، ثم انفصل عنه طيف دخاني أبيض اللون، جعل عبد الهادي يصرخ بقوة، وهو يرتد للخلف مبتعدًا..

- «الله أكبر .. الله أكبر.. الملائكة تحمي الإمام .. الملائكة تحمي الإمام».

لا أعرف ما يراه شقيقي عبد الهادي، ولكن كان أمامي أبشع مخلوق يمكن أن تراه في حياتك برغم لونه الأبيض..

هو لا يشبه الشيطان بقرنيه وملامحه البشعة، لأن الشيطان في هذه الحالة سيبدو بجواره حمل وديع ..

كان ظل أبيض رهيب لا انعكاس له.. له ألف وجه بشع الخلقة، لا أطراف له، هاجم أحد وجوهه الهرة فالتهم أحد أطرافها بأنياب بيضاء حادة شديدة البشاعة، جعلت دماء الهرة تتناثر على كل شيء فوق المنضدة إلا الجثمان.

وعلى أثرها هرب الدرويش والهرة وعاد الحائط ليبتلعهما، وتختفي الظلال الدخانية، ويعود الحائط أبيض من قلب مؤمن، وإن ظل عبد الهادي يردد في ذهول:

- « لقد رأيت الملائكة .. رأيت الملائكة».

صراخه جذب ذوي الميت، وعندما رأوا حالة عبد الهادي، وسمعوا ما يقول بصوته العميق المضطرب، وحاولوا استنطاقه عن أصل القصة، فقال كمسلوب العقل:

- « لقد خرجت الشياطين من الحائط، وحاولت مهاجمة الجثمان، فظهر ملاك مهيب له جناحان عظيمان منيران، وفتك بأحدهم وطردهم من المكان».

نظرت لشقيقي في دهشة عظيمة، إن ما يقوله الآن سيصنع أسطورة عظيمة، والأفدح أنه سيؤخر الدفن.

إنهم سيجعلونه من أولياء الله الصالحين، وربما يقيمون له مقام كبير قبل الدفن..

مما يحدث أدركت أن الدرويش وهرته ليسا كائنان أرضيان..

بل ويحاولون منعنا بأي وسيلة من دفن جثة أبو سالم، الذي أصبحت أدرك أن هناك كائنات غيبية أخرى تقوم بحمايته حتى بعد موته..

أنا الآن في مأزق كبير ..

في منتصف حرب كبيرة بين فريقين لا أعلم من الشر فيهم ومن الخير.

انعقد على إثر ما حدث جلسة عرفية كبيرة، حضرها الأعيان والعمدة، وقرر الجميع بالفعل بناء الضريح..

وكان الوقت في غير صالحنا..

جهزنا الجثمان وغادرت أنا وأخي المذهول المكان، وأنا لا أعرف ما الخطوة التالية الواجب القيام بها.

***

(4)

لم تمض عدة ساعات، حتى صار شقيقي عبد الهادي حديث القرية كلها، بل ووصل خبره إلى القرى المجاورة، فجاء البنائون من كل مكان تطوعًا لبناء الضريح، وظل هو في حالة عظيمة من الذهول، وكأنما رأى ما لم يتحمل عقله استيعابه.

أحضرت له طبيب المركز الذي كان قد سمع القصة من السائق الذي أقله لبلدتنا، قبل أن يحضر إلى منزلنا، وصدعني بأسئلته الكثيرة عن شقيقي، وعما رأيت.. وكانت كل إجاباتي تنحصر في رد واحد:

- « نعم كائنات تشبه الملائكة..لم أر الملائكة من قبل لأجزم».

بالطبع لن أستطع ولو أردت أن أخبر أي أحد أني رأيت ذلك المسخ متعدد الوجوه، والذي التهم أحد وجوهه إحدى قوائم الهرة المفترسة التي في حجم كلب بالغ.

وبعد نصف ساعة من المهاترات عاد ذلك السخيف اللحوح طبيبا مرة أخرى، وقام برهبة بفحص شقيقي فحص شامل، وأوصاني بأن أحضر له بعض الأدوية المهدئة القوية، لأنه ويا للعجب في حالة صدمة.

لا أعرف كيف تاه هذا التشخيص العبقري عن عقلي!!

وبالفعل قمت باحضار الأدوية، ثم تركت العناية بعبد الهادي لشقيقاتي وأمي، وتوجهت نحو السيرك الكبير المنصوب في المقابر، لأعرف نتيجة ما آلت إليه الأمور.

كانت المقابر في هذا التوقيت شعلة من الضياء..

المئات من أهل القرية والقرى المجاورة هناك، يساهمون بالقرميد والملاط، والبعض أحضر الكلوبات فالشمس على وشك المغيب، والبعض أحضر الماء والطعام للعاملين، حتى عرفان صاحب المقهى، كان هناك هو وعمال مقهاه، يدورون على الجميع بالمشروبات الساخنة،

مولد حقيقي تم إقامته بناءًا على مشاهدات شقيقي الغارق في الغيبوبة الصناعية الآن.

ومع حلول الظلام، وبعد أذان المغرب مباشرة، عثر الرجال على الجثة الأولى غارقة في دمائها بشكل وحشي..

كانت لعامل بناء قرر أن يستريح قليلًا من جهد العمل المضني الذي قام به، في ظل شجرة قريبة.

كانت الجثة ممزقة بضراوة، ومشوهة بشكل عنيف،وكأن من أراد قتل العامل كان يريد أن يقوم بتوصيل رسالة ما.

كنت قد تواريت في حوش قريب أتابع سير العمل، كي اتجنب طوفان الأسئلة والحصار الذي سيقوم به الرجال حولي، كي أقص عليهم ألف مرة ما رأيت، وما رآه شقيقي عبد الهادي.

وعندما سمعت الصرخة الثانية تخرج من حنجرة أحد الرجال

المصدومين، انتفض جسدي بقوة، وتوترت في مكاني، فقد كان يصرخ دون توقف:

- « قتيل ثانٍ .. قتيل ثانٍ».

هذه المرة كنت أول من وصل إلى مكان الجثة الثانية، التي تمزقت أطرافها بشكل بشع، وبقر بطنها وتصفت عيناها بوحشية..

وبجوارها لمحت الآثار التي جعلتني أتوتر بشكل عظيم.

آثار أقدام كبيرة لقط، له ثلاثة أطراف فقط ..

هل تذكرون هذا الوصف؟

هل تعلمون من فقد أحد أطرافه منذ وقت ليس بالبعيد..

الأمر لا يحتاج لذكاء، ولا إلى ذاكرة قوية، فما زالت الأحداث طازجة لم تمض عليها ساعات..

إنها آثار هرة الدرويش..

إنه ما زال يقاتل لمنع دفن جثة إمام المسجد أبو سالم..

مازالت معركته ممتدة لم تنته ..

إنهم يقومون بإنشاء الضريح حول نفس مقبرة العائلة، والتي أوصى أبو سالم نفسه أن يدفن فيها قبل موته، ولولا هذه الوصية لأنشأوا له مقبرة منفصلة ككل الأولياء، ولكن من بالحماقة أو الغي الكافي لئلا ينفذ وصية رجل تحرسه الملائكة..

ولولا وصيته هذه لما تم دفنه في هذه المقبرة، ولتحقق غرض الدرويش، ولتوقف نهر الدماء الذي تغذيه هرته الملعونة.

الضحية الثالثة والرابعة.. وجدوا في مكان واحد.. وحالتهم لم تكن تختلف كثيرًا عن حالة الجثث السابقة.

وأعلن الجميع النفير، وقرروا أن يكونوا في مكان واحد..

لا أحد يتحرك وحده مهما كان السبب..

لا أحد يتحرك دون سلاح..

الحرب التي بدأت منذ بدء الخليقة تتجدد الآن..

الانسان ضد الشيطان، وضد خوفه من المجهول.

ولذلك، فبغض النظر عن الذعر الذي سكن النفوس، إلا أنهم وبعزم لا يلين قرروا أن يتموا الأمر ، وألا يخضعوا لإرادة الشياطين ..

ومن كل مكان ظهرت المزيد من الكلوبات والمشاعل، وتحول المكان إلى نهار.

لن تدخل ذبابة إلى الكردون الذي صنعه الغفر ويحمونه ببنادقهم إلا وتم رصدها، فلن تظهر الملائكة في مكان وتقاتل من أجله، ويتخلى البشر عن المعركة..

ولا أعرف متى كنت وسط الجموع، أتسلح بمنجل زراعي حاد.

واستمر البناء على قدم وساق..

ثم حدثت المواجهة الكبرى، في نفس اللحظة التي تسللت فيها وحدي خارج الكردون الأمني البدائي الذي أحاط بالضريح إلى منطقة مستترة لألبي نداء الطبيعة ..

ومن مكاني سمعت صوت الطلقات الكثيرة التي كانت تدوي دون إنقطاع كهزيم الرعد.

وأدركت ساعتها أن الشر قرر المواجهة المباشرة، وقرر أن يكشر عن أنيابه.

المفاجأة المرعبة كانت لي وحدي..

فالقطة السوداء التي صارت في حجم نمر بالغ كانت تقف أمامي تواجهني بقوائمها الثلاثة.. وعيناها المشتعلتان غضبًا وكراهيةً وسط الظلام، تتألقان وترمقانني في جشع.

انحبس البول بداخلي فرفعت ثيابي بسرعة وتناولت المنجل الحاد في يدي، ووقفت في ذعر أواجه ذلك الخطر الوحشي، القادم من البقعة الباردة.

هل أخبرتكم من قبل أني أخشى القطط؟

حدث !!.

إذا لتعلموا الآن أنني قد أكون ضحيتها..

صوت الطلقات تحول لصراخ وأنين ...

وهذا جعلني أفكر ..

إن كانت الهرة السفاحة هنا.. فمن يهاجم الرجال هناك ؟

لابد وأنه الدرويش..

الدرويش الذي لا يمكن أن يكون بشريًا بأي حال من الأحوال، فلم أر غير نوارة فقط من تستطيع عبور الجدران، وهي ليست بشرية بالطبع.

الصراخ القادم من بعيد يرج كياني..

الفحيح الصادر من كل مكان يخبرني أن الشر يهاجم بكل ضراوته، وأن المعركة محسومة له.

الطلقات المتباعدة..

الصرخات الهادرة..

الفحيح الذي أصبح يصم الآذان.

والهرة أمامي تتأملني بعيونها المخيفة، وعيناي لا تغيبان عن طرفها المفقود الذي ذكرني بطرف أخي الصناعي المصنوع من الخشب، فترك عقلي كل شيء وأخذ يرسم طرفًا صناعيًا مناسبًا لتلك الهرة، التي كان من الواضح أنها تعمل على تنويمي مغناطيسًا، كما تفعل القطط الطبيعية في عالمي.

طلقة ..

صرخة..

ثم صرخة.. تليها طلقة.

كان من الواضح أن المعركة محتدمة هناك، وكنت أتمنى لو أنني أواجه الخطر وسط الرجال..

ثم دوى بعقلي صوت نوارة:

- « عليك أن تقتل الهرة».

الآن أستفيق من دوامة الأفكار، لأكتشف أن الهرة قد بدأت هجومها منذ لحظات، وأنها تجثم على صدري، وأنني أكافح لأتنفس، ولكي لا تفتك مخالبها أو أنيابها بوجهي أو صدري.

أقبض على المنجل وألوح به من وضعي غير المريح.

الناحيـة غـير الحـادة تصطـدم بوجـه الهـرة فتفقـد عينهـا اليـسرى، وتتصفـى، فأدفعهـا بعيـدًا عـن جسـدي وأهـب واقفـا لأواجههـا، وبرغـم ذلـك مازالـت العـين تشـتعل بنـيران حقيقيـة..

يدوى بعقلي صوت نوارة:

- « عليك أن تقتل الهرة».

أصرخ في غضب، موجها حديثي إلى اللا مكان؛ فنوارة غير متواجدة حـولي، وأقول:

- « اللعنة يا نوارة.. أصمتي قليلًا».

الهرة تندفع صوبي بجسدها الضخم، وفرائها يهتز، ثم تتخذ وضع الهجوم الشهير، وهي تضرب بمخالبها في الأرض،

وتقفز نحوي..

أنتحـي بجسـدي جانبًا لأتفـادى الهجمـة، ثـم ألـوح بالمنجـل الحـاد في الهـواء، ليخـترق الفضـاء نحـو جسـد الهـرة الطائـر، ويشـقه مـن المنتصـف. وبـدلا مـن أن تسـقط الأحشـاء، تنقسـم الهـرة بوسـيلة جهنميـة إلى نصفـين، ويهاجمنـي كل نصـف منـه عـلى حـدة..

نصف يحجل بقدم واحدة، ونصف له قدمان.

يدوى بعقلي صوت نوارة مجددًا:

- « الرأس .. عليك أن تصيب الرأس».

أرمـي جسـدي عـلى الأرض لأسـقط فـوق قالـب مـن القرميـد لأشـعر بأحـد أضلاعـي يتهشـم، وألم حـاد يطـوف بعقـلي، ولكـن ليـس هنـاك وقـت لهـذه الرفاهيـة..

أدور بجسدي، الذي غرق في بركة من الماء الآسن الذي أفرغته من مثانتي منذ لحظات، لأنتصب واقفا على قدمي، وقد لطخ الوحل ثيابي، وصارت رائحتي لا تطاق.

لا أعرف كيف يرصد عقلي كل هذه التفاصيل، ولكنني أواجه نصف القطة الذي يحجل على ساق واحدة، منتهي بالرأس البشعة ذات العين المفقوءة..

في حين ظهرت نوارة لتشتت نصف الهرة السفلي الذي يتحرك على ساقين، وهي تصرخ:

- « الآن إفعلها.. الآن».

صوت الطلقات يأتي من بعيد..

رائحة النشادر واليوريا في أنفي..

الظلام من حولي ..

صرخات ونيران تشتعل في كل مكان ..

المنجل في يدي كسيف بتار، أديره في سرعة لأطيح بقائم القطة الثاني، الذي جعل الرأس يصرخ في غضب ويهاجمني بطريقة تثير الشفقة..

ولكنني كنت في عالم آخر ..

عقلي وتركيزي وكياني كله، لا يرى غير منتصف الرأس الذي اختلط بالطين، وبقايا النباتات الجافة..

أرفع المنجل..

أهوي به بكل قوتي..

صوت طلقة وحيدة يأتي من بعيد..

ماذا يحدث للرجال حول الضريح؟

أشق الرأس شقًا، ليشتعل الرأس والجسد الذي يواجه نوارة، والطرف المبتور بنار زرقاء باهتة، قبل أن أسقط على ركبتي أتنفس في صعوبة، والعرق يغمر وجهي، وعيناي على نوارة التي وقفت أمامي مبتسمة وقالت:

- «لقد قتلت الهرة.. لقد قتلتها».

لم يكن عندي رد غير أن دموعي انفجرت دون إرادة مني وأخذت أبكي وأنتحب..

كان الأمر أكبر مني هذه المرة ..

روحي لم تتحمل أو تتقبل ما حدث..

نوارة تقترب مني ثم تتوقف، بعد أن أدركت عجزها عن مجرد لمسي واحتوائي..

أفكر في يأس: أنا بحاجتك يانوارة.. بحاجة لضمتك.. بحاجة لأن أستكين بين ذراعيكِ وأبكي ..

إن الأمر مروع .. مروع بشكل كبير..

وللحظة توترت نوارة، ثم رمقتني.. وكعادتها انسحبت من المكان..

لا أعرف متى كفكفت دموعي، وحملت منجلي الحاد، وتوجهت صوب الرجال..

كانت مجزرة عنيفة ..

سبعة جثث افترشت المكان.. وحولها وقف الرجال ينظرون لبعضهم البعض في ذهول..

جميعهم تذكروا تهاني ..

وتذكروا تلك الكائنات التي كانت بلا رؤوس..

جميعم عاشوا الرعب نفسه، وربما أكثر، على يد الدرويش، الذي لم يتبق منه سوى ثياب محترقة وبعض المسابح ..

زيه التنكري الذي كانت تذكرته للدخول إلى عالمنا..

العمدة مصاب، ولكنه سيحتاج لشيخ غفر جديد..

البناء توقف، والرجال في حيرة، وبدون أن أشعر وقفت في منتصف المكان وقلت:

- « معركتنا لم تنته.. لابد أن يدفن الإمام بسرعة.. لابد أن يدفن ومعه الشهداء السبعة.. وليكتمل بناء الضريح وهم بداخله».

مرت ساعتان قبل أن يعود الرجال لرشدهم، وتخرج جنازة هائلة للإمام الذي سبقه الشهداء السبعة دون غسل بل دفن كلا منهم في حالته كما ينص الشرع.

وفي اللحظة التي أغلق على الامام باب مقبرته، وشرع البناءون في إنهاء الضريح ..

ارتجت الأرض بقوة..

وانطلق ضياء باهر من أعماق القبر والضريح غير المكتمل..

تلاه صوت صراخ رهيب وكأن هناك من يمزقونه حيًا ..

صوت عويل رهيب جمد الدماء في عروقنا..

صوت فحيح غير بشري، وضجيج غير معلوم المصدر، وكأنه يأتي من كل مكان..

تابعـت مـع الرجـال مـا يحـدث بأعـين جاحظـة تـكاد تخـرج مـن محاجرهـا..

المعركة مازالت ممتدة..

الملائكة كما قال بعض الرجال تواصل الزود عن الشيخ ..

الضوء يتضاعف..

الخوار والعويل يصمان الآذان..

الضوء يعمي عيوننا، قبل أن تحدث فرقعى عالية ويخفت الضوء..

لنشـاهد بعيوننـا التـي لم تعتـد الظـلام بعـد الضيـاء الباهـر .. انكـماش القـبر والضريـح.. ثـم انسـحاقهما وتحولهـما لرمـاد..

ليعـم السـكون كل شيء وسـط نظـرات الدهشـة والحـيرة مـن الرجـال، ليقطـع الصمـت صـوت صـارخ:

- « أبي والشـهداء صعـدوا إلى السـماء، لنكمـل بنـاء الضريـح حـول رمادهـم الطاهـر».

تحليـل جنـوني للمشـهد، ولكنـه أعـاد الاتـزان للقلـوب والعقـول، وعـاد الرجـال لبنـاء الضريـح..

في حـين كنـت أنـا في المنـزل أعـود شـقيقي الـذي لم يفـارق غيبوبتـه.. وأمامـي تقـف نـوارة صامتـة عـلى غـير عادتهـا، فابتدرتهـا قائـلًا:

- « ماذا هناك يا نوارة؟».

إجابتها الدائمة المستفزة:

- « لقد ذهبوا».

أواجها بلا مشاعر مع كم الإرهاق الذي يعتصرني، وأقول:

- « نعـم لقـد ذهبـوا.. كل البـشر في يـوم مـن الأيـام سـيذهبون.. أنـا سـأذهب وأنـت سـتذهبين.. وكل مـن ظـن أن المـوت بعيـد عنـه».

تهز رأسها بطفولية وتقول:

- « لقـد ذهبـوا إلى البقعـة البـاردة.. لقـد تأخـرت في قتـل الهـرة.. وروت دمـاء السـبعة أرضهـا الملعونـة.. البوابـة أغلقـت هنـا.. لكنهـا فتحـت في مـكان آخـر».

صرخت بها في هلع وقلت:

- « في مكان آخر في القرية».

هزت رأسها أن لا وقالت:

- « في مـكان بعيـد.. ولكـن كل شيء أصبـح قريبًـا.. النهايـة قريبـة يـا حبيبـي».

تنفسـت الصعـداء وألقيـت جسـدي عـلى الفـراش، وقـررت أن أذهـب في سـبات عميـق.. فطالمـا الخطـر بعيـدًا.. فبإمـكاني النـوم الآن ومواجهتـه في الصبـاح.

خلدت للنوم..

ولسـبب مـا، كلـما قلقـت في نومـي وجـدت نـوارة هنـاك تتأملنـي في حـزن.

لم أفهم سبب نظراتها الحزينة..

ولم تكن لدي طاقة لأي شيء..

وعندما نمت، لم تأتِ لي في الأحلام هذه المرة..

* * *

لكن السر؟!
مازال بقاع البئر
فلتهبط بالتدريج إلى القاع
وبكل حذر..

«أفكار جنونية في دفتر هاملت»
نجيب سرور

الفزاعة

(1)

الحياة رتيبة بعد عام كامل من تلك الأحداث الصاخبة التي واجهتني بتعاقب مخيف، ما جعلني أتساءل عن السر الذي بدأت من أجله تلك الأحداث، والتي من أجله انتهت.

هل زال النحس عني؟

هل انتهت لعنة قريتي بكل ما سفك فيها من دماء؟

لا أعرف حقًا.

وما أعرفه أن البشر، أكثر مخلوقات الأرض قدرة على التكيف والنسيان، بل والمضي قدما مهما كان هول الكارثة التي يواجهونها.

ولم أكن أتوقع أن هذا الهدوء الطويل.. هو الذي كان يسبق العاصفة.. وللدقة نقول: كان يسبق الزلزال..

نعم مازال طالعي نحس.. ومازالت قريتي ملعونة.. والابتلاء هذه المرة كان شديدًا..

لن أتحدث عن البيوت التي هدمت على ساكنيها.. لن أتحدث عن عدد الموتى غير المسبوق..

لـن أتحـدث عـن الخسـائر الماديـة والمعنويـة، فجميعهـا معروفـة ومتوقعـة ونراهـا في نـشرات الأخبـار.

سأتحدث فقط عن الهول الذي ظهر بعد الزلزال.

فبعـد الزلـزال مبـاشرة، وبعـد أن لملـم أهـل القريـة جراحهـم، وشرعـوا في اسـتعادة حياتهـم الطبيعيـة، زادت الشـكوى مـن تعرضهـم لهجـمات الطيـور الغاضبـة، وخاصـة الغربـان، وتحديـدًا بالقـرب مـن البئـر الجـوفي الوحيـد الموجـود في قريتنـا.

ذلـك البئـر الـذي أصبـح محاطًـا بالحكايـات والأسـاطير، خاصـة مـع الأصـوات الغريبـة والمؤلمـة القادمـة مـن تلـك الفجـوة التـي ظهـرت بأعماقه.

حتـى هـذه اللحظـة لم أعـرف سـبب وجـود هـذا البئـر إلى الآن، ولمـاذا لم يتـم ردمـه بعـد جفافـه منـذ زمـن بعيـد؟.

كان البئـر يقبـع بقلـب إحـدى الأراضي البـور التـي تقـع عـلى الطريـق السريـع الـذي يمـر بالقـرب مـن قريتنـا، وهـو الطريـق الوحيـد الـذي يربطنـا بالمدينـة القريبـة.

استخدم بعـض النـاس البئـر الجـاف، في فـترة مـن فـترات الهـدوء التـي أصبحـت قريتـي تفتقدهـا هـذه الأيـام، كبئـر للأمنيـات، كـما يحـدث منـذ زمـن مـع بئـر مسـعود في الأسـكندرية، تلـك المدينـة السـاحرة التـي لم أزرهـا إلا مـرة واحـدة في حيـاتي.

وكانـوا يلقـون فيـه ببعـض القطـع النقديـة المعدنيـة التـي كانـت تصطـدم بصخـرة قابعـة في أعـماقـة فتـدوي برنـين خـاص.. فيؤولـه كل منهـم حسـب رغبتـه، وحسـب مـا تميـل لـه روحـه.

نوع مخادع من الدعم النفسي، بحثًا عن تلك القوى الخفية، التي ستساندهم من العالم الآخر، وتحقق لهم أمنياتهم.

كانوا يتفائلون به.. وذاع صيته لفترة ما، قبل أن ينساه الجميع مع تعاقب الأجيال وتبدل الثقافات والاهتمامات.

لا أعرف حقيقة تحقيقه للأمنيات، ولكنني تسلقته هابطا أكثر من مرة مع بعض الرفاق وجمعنا من داخله العديد من القطع المعدنية، بعضها كان يحمل وجه الملك فاروق، ومازلت أحتفظ بها في دولابي.

كان عمق البئر خمسة أمتار..

وبعد الزلزال أصبح حفرة عميقة لا قرار لها، تخرج منها رائحة كبريتية مؤذية، وأصوات مرعبة ذكرتني ببئر برهوت باليمن.

تلك البئر سيئة الرائحة التي قيل أن أرواح الكفار والخاطئين تذهب إليها، والتي وصفها البعض بسجن الجان، والتي تحدث عندها بعض الظواهر المريبة كالأصوات والرائحة الكريهة كحال بئرنا هذا.

الجديد في الأمر هنا، هو الشائعات الكثيرة التي بدأت تتداول عن ظهور الفزاعة العشوائي في المنطقة المحيطة بالبئر، وبجوار حافته القديمة، المصنوعة من الأحجار.

كان هذا خبرًا ثقيلًا على روحي.. بل ثقيلًا جدًا.. فهو يعني أن اللعنة مستمرة..والخطر مستمر.. وأن المزيد من الكائنات الشيطانة باتت تظهر في قريتنا.. وإن كان هذا أكثرها حميمية، وقربا من أجوائنا.

الفزاعة مرعبة دون إضافات، فما بالكم عندما تكتسب حياة وتتحرك في قلب الظلام.

هـل تعرفـون الفزاعـة -خيـال المآتـه- ذلـك التمثـال البدائـي المـلء بالقـش، والـذي يرتـدي قبعـة كبـيرة مـن القـماش، وملابـس رثـة مهلهلـة، وينصبـه الفـلاح عـلى عمـود خشـبي بقلـب الحقـل ليخيـف بـه الطيـور واللصـوص والغربـاء ويحمـي أرضـه..

إنـه شيء مرعـب عندمـا يفاجئنـا في الظـلام.. ولا أنصـح أحـدًا بـأن يمـر بتجربـة مماثلـة.

الـشيء الغريـب في الأمـر أكثـر، أنهـم يقولـون أنهـا فزاعـة أنثـى، ولا تحمـل أي مـن تلـك الملامـح المبهمـة المعتـادة، التـي توحـي بكونهـا رجـلا.

والعديـدون أضافـوا أنهـا تحمـل بـين يديهـا طفـل رضيـع، تقبـل يـده أحيانًـا.

وأكد معظهم أنه طفل ميت.

كـما أن البعـض تحـدث عـن تلـك الأفاعـي، التـي تخـرج مـن قلـب البئـر الملعـون، وتعشـش في المـكان الـذي تقـوم فيـه بدفـن طفلهـا في كل مـرة.

ويحـدث الأمـر دومًـا قبـل شروق الشـمس.. وكأنهـا تخشـى الشـمس، فبعدهـا لا تعـود للظهـور إلا ليـلًا.

والمخيـف أن سرب كامـل مـن الغربـان كان يصحبهـا في تحركاتهـا، عـلى عكـس الهـدف الحقيقـي مـن وجودهـا، بـأن تعمـد إلى إخافتهـم، لا جذبهـم إلى حيـث تتواجـد، وكأنـه سـحابة سـوداء قاتمـة.. توحـي بالهـول القـادم.

البعض قال أنها تشبه الغولة..

وأحدهم تظرف وقال أنها تشبه زوجة أبيه التي يكرهها..

وآخر قال إنها أبشع شيء رآه في حياته، غير عشرات الأشكال التي كانت تظهر بها.

والثابت هنا أنها أنثى..

وأنها تمثل تجسيدًا لمخاوف العديدين.

أنا نفسي أخشى الفزاعة بشكل مرضي، من حادثة قديمة حدثت لي، عندما ضللت الطريق في صغري بداخل حقل للذرة وفاجأتني الفزاعة المنصوبة هناك.. كانت تجربة مروعة وغير سارة لطفل في سني المبكر هذه.

قبل ساعة واحدة، لم أكن على دراية بأي شيء حول هذا الموضوع، وعلمت كل هذه المعلومات من شقيقي عبد الهادي، الذي بدأ يصدق في الخوارق والأمور غير الطبيعية، بعد ما مر به من أهوال، وأنا أقوم بمساعدته في إعداد جثمان مصطفى شديد سيء السمعة، وهو أحد رجال قريتنا المنكوبة الذي لا أتمنى لأحد أن يقابله، ببنيته النحيلة، والتي لم تخلُ من مكان واحد فيها، لم تمزقه مناقير الطيور ومخالبها.

جاء في ذهني على الفور شخصية الفزاعة في كوميكس دي سي والتي ابتكرها كل من بوب كين وبيل فينجر ، وهي تدور حول طبيب نفسي كان يستخدم مجموعة متنوعة من المخدرات والأساليب النفسية لاستدعاء مخاوف خصومه، واستخدامها لهزيمتهم والتخلص منهم.. ولمن لا يعرف، يعتبر الفزاعة من ألد أعداء باتمان، وأكثرهم خطورة..

وكان مصطفى شديد هو أول ضحايا الفزاعة، وغربانها..

ولم يكن الأخير..

وبرغـم نهايتـه الشـنيعة.. لم يقبـل أهلـه أن يذهـب جثمانـه إلى المسـتفى العـام ليفحصـه الطبيـب الشرعـي كـي لا يخضـع للتشريـح- فهـم يعتبرونـه تدنيـس وإهانـة للميـت- كـما أنهـم أرادوا إكرامـه بدفنـه، وقطـع الأقاويـل عـن حقيقـة تواجـده في تلـك المنقطـة النائيـة في هـذا الوقـت مـن الليـل.

مصطفـى شـديد هـو تاجـر مخـدرات معـروف، ويديـر دولابـه الشـهير هنـاك في مزرعتـه التـي تقـع بالقـرب مـن البئـر، ولذلـك لا تنقطـع الأقـدام عنهـا.

وهـذا يحيلنـا إلى جانـب آخـر مثـير للشـكوك، أن كل مـن نقـل القصـص الغريبـة السـابقة حتـى وصلـت إلى عبـد الهـادي؛ كانـوا مجموعـة مـن المدمنـين، فاقـدي الأهليـة والتمييـز.

وهذا أراح قلبي قليلًا، فربما هي هلاوس نوع جديد من المخدرات.

ولكـن عندمـا وقـع خطيـب أختـي خلـود ضحيـة لطيورهـا الغاضبـة.. وخسر عينـه اليمنـى، مـع العديـد مـن الإصابـات الأخـرى.

كان علي أن أتحرك وأتحرى الأمر ..

لذلك أنتظرت حلول المساء، وذهبت إلى هناك..

نـوارة بالطبع لم تكـن في الأنحـاء لتخـبرني عـن حقيقـة الفزاعـة وطبيعـة الخطـر الجديـد ككل مـرة، ولهـذا سـبب حزيـن وقاتـم.

فهـي قبـل أن تختفـي مـن القريـة ومـن عالمـي، قبـل شـهر كامـل أخبرتنـي، أنهـا سـتذهب.

ستذهب ولن تعود، ككل من ذهبوا ولم يعودوا.

وفـسرت الأمـر، بـأن جسـدها لا يتحمـل مـا يـدور بداخلـه مـن

تحـولات، وصراعـات، وآلام. بعـد أن عبثـت بخلاياهـا تلـك البكتيريـا التـي كانـت موجـودة في النيـزك،

وفضلـت أن تحتـضر وتمـوت وحيـدة عـلى أن أشـاركها محنتهـا.. لأنهـا لـن تحتمـل أن تكـون مصـدرًا لمعانـاة الشـخص الوحيـد الـذي أحبتـه في هـذا الكـون.. حسـب تعبيرهـا الرقيـق.

قلبي يخبرني أنها ما زالت على قيد الحياة ..

هنـاك رابـط لا شـعوري ينمـو بداخـل كل العشـاق، حتـى ولـو كان أحدهمـا مصـاب بلعنـة، ومـن بعـد آخـر..

إنها مازالت على قيد الحياة ..

ربما تعاني ..

ربما تتألم ..

ولكنها ستعود..لابد أن تعود..

ومعنى هذا الآن أنني سأكون وحيدًا في مواجهة الفزاعة..

وربما أذهب مثلها..

ولا أعود.

* * *

(2)

منتصف الليل..

يقولون أن الليل ستار، لأنه قادر بظلامه وهدوءه على إخفاء آثار آثامنا وجرائمنا، وكل ما نخجل من إظهاره في ضوء النهار ..

الليل ستار..

ولكنه مخيف ..

خاصة وأنا أتحرك وحدي وسط حقول الذرة، القادرة على إخفاء كل مسوخ الليل بأعماقها..

أنا هنا الآن ..

لا أعرف السبب الحقيقي الذي يدفع أحمق مثلي للقدوم إلى هذا المكان، دون أن يخبر أحدًا، ودون أن يحضر الدعم أو سلاح يذود به عن نفسه، خاصة وأن الخطر هذه المرة واضح وصريح، وعلى يدي دفن أحد ضحاياه، وتألمت شقيقتي أمامي، وهي تخبرني أن خطيبها قد فسخ الخطبة بعد أن وصفها بالنحس.

وكأننا لو كنا نعمل في مهنة أخرى لما طاردته الطيور، وأسالت دمائه، وفقأت عينه..

لم يغفر جمال شقيقتي خلود لها هذه المرة..

ولم أعرف كيف أواسيها ..

فهل أنا هنا لأثبت لها ولنفسي أن الخطر لا يمس طبيعة مهنتنا ؟

هذا ليس السبب بالتأكيد.

هل هو الفضول؟

هـل رغبـة منـي في اكتشـاف المجهـول وسر تلـك الأحـداث الرهيبـة التـي تحـدث في قريتـي؟

أنا نفسي غير مقتنع بهذا التفسير المزري أيضا..

التفسير الوحيد الذي يثير هلعي، وسيثير دهشتكم ..

أنه النداء ..

شيء أكبر مني ..

شيء لا ينتمي لهذا العالم الذي أحيا فيه..

شيء يخبرني أن موعدي قد حان، دون أي معلومات إضافية.

شيء جعـل الحاصـد يطلبنـي، وجعلنـي أنجـذب كـبرادة الحديـد إلى حيـث يكمـن الخطـر الـذي قـد يهرب منـه أي إنسـان طبيعـي لديـه بعـض العقـل، والـذي يبـدو أمامـي الآن كمغناطيـس عمـلاق.

ولكن من قال أني طبيعي ..

لقـد أُزهقـت سـبعين روحًـا مـن أجـل الإيقـاع بي، وأتـى قطـار مـن الجحيـم ليصحبنـي هنـاك..

أنـا لي أهميـة عظمـى لا أعرفهـا.. وربـما لـن أكتشـفها مـع مغامـرتي الحمقـاء الحاليـة.

لأنني أتوقع موتي، وبرغم هذا أتمادى.

صفوف الذرة تمتد أمامي إلى مدى البصر، القمر يضيء الحقول، وينثر الظلال في كل مكان.. أخترقها بحذر متجنبا أن تصيبني أوراقها الحادة في عيني.

قلبي ينبض في عنف، دليل جيد على ذعري، وعقلي يفكر دون جدية بأن كل من سيراني الآن، أقطع هذا الطريق، لن يذكر الفزاعة، أو ضحايا الطيور الغاضبة، وسيتأكد من أنني ذاهب إلى دولاب عوني، ابن مصطفى شديد، الذي حمل على عاتقيه مسئوليات أبيه للترويج للمخدرات من بعده.

لا شيء يهم الآن ..

شيء ما يخبرني أنه علي أن أصل إلى البئر سريعًا..

البئر يقترب، ولكنه غير مرئي من هذه الزاوية.. ولكني أعرف اتجاهه، فلا مجال كي أضل طريقي..

لسعة برد أو خوف لا أعرف تجتاح عمودي الفقري، مع الضباب الذي بدأ يغزو كل شيء..

أتقدم أكثر فتنغرس قدمي في بركة آسنة على وشك الجفاف، فأنزعها بقوة من قلب الطين الهش والوحل وأكمل طريقي.

الضباب يتلاعب أمام عيني، فيخيل لي أن هناك من يتحرك على البعد دون دليل واضح..

كل شيء مع الخوف ممكن، حتى الهلاوس..

كثافة صفوف الذرة كانت تقل تدريجيًا، مع تقدمي، إلى أن انتهت تمامًا، ووصلت أخيرا للأرض البور.

أخبرتكم أن القمر المكتمل يضيء المكان..

ولم يمثل لي هذا أي عزاء، عندما وقع بصري على الفزاعة الجالسة على حافة البئر ، بمظهرها المخيف المثير للخيال والفزع.. فتقلصت أحشائي، وأصابني توتر شديد.

لم يكذب من وصفها بهيئة الأنثى، ولم يبالغ من قال أنها أبشع شيء رآه في حياته..

تتساءلون بالطبع كيف أراها من هذه المسافة البعيدة؟

لن نعود بالطبع للحديث عن أني أتغير بشدة، وأنني ركن أساسي في هذه الأحداث.. ولكني وقتها لم أكن أعرف السبب.

المهم أن القمر في السماء يعمل كمصباح قوي يضيء المكان بشكل جيد، إنه مناسب جدًا لظهور أحد المذئوبين لو كان للأمور أن تسير في نصابها الصحيح..

ولكن لم يكن هناك أي مذئوبين في المكان، بل كانت الفزاعة أمامي بثقلها وهيئتها المنفرة، تملأ المكان والزمان برغم حجمها الذي لم يكن يتجاوز حجم ذكر بالغ.

أتفرس في ملامحها من هذه المسافة الآمنة، وأقارن ما حصلت عليه من معلومات، مع ما أراه متجسدًا أمام عيني، وجعلني هذا أدرك شيئًا رهيبًا غفل عنه كل من رآها.

فهي لم تكن تحمل طفلًا ميتًا فقط، بل كانت تتغذى عليه أيضًا.

لمحتها من مكاني البعيد تنتزع ذراع الطفل في بساطة، وتنشب أسنانها النخرة في لحمه، وتقضم منه في اهتمام، كأنها تتأكد من مذاقه،

قبل أن تنهيه على أربع قضمات، لتعود برقة - لو كان لمسخ مثلها أن يحمل هذه الصفة- وتحفر حفرة وتدفنه فيها بعناية، قبل أن تخرج من البئر الثعابين.

جميعهم ذكروا الثعابين..

وجميعهم كانوا مخطئين ..

هي ليست ثعابين، بل ممصات طويلة تتلوى ثم تغوص في الأرض في نفس المكان الذي دفن فيه الطفل ..

لن أطلب بالطبع الدقة من بعض المدمنين، هي ثعابين وكفى..

الآن تصلني المعلومة كاملة..

الفزاعة ليست الخطر الوحيد هنا، وليست المصدر الأساسي له.. إنها هنا تقوم بدور الخادمة، لشيء أكثر شرًا منها،

شيء يسكن البئر،

وربما هو قادم من حيث أتت نوارة، أو من حيث أتى الدرويش وهرته المتوحشة.

تابعت ابتلاع الأرض لتلك الممصات الغريبة، ثم عودتها للبئر، وبعدها حدث ما جعل شعري يشيب..

لون شعري الأبيض هذا ليس وراثة أو من عوامل تقدم السن..

بل سببه الهول الذي رأيته في تلك الليلة ..

* * *

(3)

أمام عيني، ظهرت ملامح تلك الفزاعة الجهنمية، ملامحها ملامح امرأة مصابة بالجذام، ووجهها لا يكسوه كل جلده، عيناها تنزان الصديد بلا توقف، وقد انتصبت على قدمين عظميتين نخرتين ممتلئة بنتوءات غريبة.

كنت أرى عظام الساق، وسلاميات الأصابع، وبالطبع الصديد الذي كان يتساقط منها..

وقفت أمامي ثم صرخت بقوة ..

لا أجد كلمة واحدة معبرة عن صراخها الهادر الذي أجتاح أذنيّ، ووقف له شعر جسدي كله، وارتجفت له كل خلية في كياني، وشاب له شعر رأسي.

كانت تصرخ ..

تتألم ..

تنظر لي بتوعد..

قبل أن تقيء ماكان في معدتها، ولا يخفى عليكم ما أكلته منذ دقائق..

ثـم رأيتهـا تتحـرك بحركـة بطيئـة تشـبه حركـة الزومبـي في الأفـلام.. وجسـدها يتطـوح بشـكل مـروع..

إنها اللحظة الحاسمة التي علي أن أهرب فيها..

للحظـة شـعرت بضيـاع رهيـب.. صرختهـا الوحشـية فعلـت شـيئًا بأطـرافي وأجهـزة جسـدي الداخليـة، حتـى أني عجـزت عـن الحركـة، وكنـت أتنفـس بصعوبـة شـديدة، وكأننـي عـلى وشـك الاحتضـار.

شـعور غريـب بحاجتـي للفافـة تبـغ.. لم يكـن لـدي قـدرة لأحـرك أطـرافي حتـى أخـرج علبـة سـجائري والقداحـة.

العقل يتصرف بخبال عند الوقوع في الخطر.

الفزاعة تقترب مني.

أصرخ بعقلي في جسدي ليتحرك.

ألهث من نقص الهواء.

تذكـرت تلـك الطريقـة التـي تقـوم بهـا بعـض الحيوانـات بإصابـة ضحيتهـا ثـم تركـه يعـاني ويسـتنفذ طاقتـه، قبـل أن تقـوم بقتلـه والإجهـاز عليـه..

لقد مارست معي نفس الأمر، بطريقة أجهلها.

صـوت الحفيـف الشريـر، يـدوي في أذني- تشـك.. تشـك- إن قدمهـا العظميـة تحتـك في الأرض وتصـدر هـذا الصـوت الموتـر للأعصـاب .

السماء خلفها تظلم، وسحابة سوداء هادرة تتشكل خلفها ..

- «تشك.. تشك»

من أين أتت كل هذه الغربان السوداء؟

رددت الشـهادتين، وتركـت أطـرافي ترتخـي، أغلقـت عقـلي عـن كل فكـرة أو رغبـة، وانتظـرت المـوت.

لابد لكل هذا الجنون أن ينتهي..

أنا لا أهمية لي سوى كوني وجبة تالية لذلك المسخ القابع في البئرو...

- « يااااااا أخ .. أركض ..ألا ترى المسخ!!».

الصـوت يصـدم أذني أكثـر مـن صـوت الحفيـف، والرائحـة النتنـة التـي بـدأت تصفـع أنفـي.

وثبـت مـن مـكاني إلى الخلـف، والعجيـب أن أطـرافي طاوعتنـي، فتدحرجـت إلى الـوراء أكثـر لتتلقفنـي أيـدي ثلاثـة مـن المدمنـين.

تلك الأعين الزائغة والبنية النحيلة لا يمكن أن تكون أي شيء آخر.

وبحركـة لا إراديـة منـي صرت خلـف الثلاثـة الذيـن انتـزع أحدهـم مطـواه، ووقـف بهـا متطوحًـا وهـو يقـول:

- « اذهبي إلى الجحيم أيتها القبيحة».

في اللحظـة التاليـة أظلـم كل شيء.. وغطـى هديـر الطيور عـلى كل صوت اخـر، إلا صـوت صرخـات المدمنـين الثلاثـة الذين مزقتهـم الغربـان إربًا..

أمـا عنـي فقـد كنـت متقوقعًـا كجنـين أخفـي رأسي بـين قدمـي، أعيـش هـلاوس تمزيـق الطيـور لجسـدي، ولكـن للأسـف لم تصبنـي إلا دمـاء وأشـلاء المدمنين الثلاثـة، والأتربـة الناتجة عـن خفقـات الأجنحـة الرهيبـة.

مـا حـدث في اللحظـة التاليـة أعـاد إلي كل مخـاوفي، وصـارت صرختـي هـي الـشيء الوحيـد الـذي يـدوي في المـكان، بعـد أن تمزقـت جثـث المدمنين الثلاثـة، وفقـدت كل أثـر للحيـاة.

وعلى أثر غياب الطيور..عاد نور القمر لينير المكان، ويرشد تلك الفزاعة التي كانت تسحبني من قدمي كحيوان نافق صوب البئر ..

ظهري يتسلخ مع كل سحبة فوق حصى الأرض الحاد، الذي كان ينغرس في لحمي بلا رحمة، بعد أن تمزقت ملابسي.

ألم ممض في كل أنحاء جسدي، مركزه ذلك المكان الذي تقبض عليه تلك الفزاعة اللعينة بقبضتها العظمية الدامية..

دمائي تخضب الأرض..

أبتلع كمية لا بأس بها من التراب، فيعاودني شعور الاختناق.

أسعل..

أصرخ ..

ألعنها وألعن حماقتي، وكل شيء آخر..

وفجأة توقف الحفيف، وخف الألم.. وزالت قبضتها عن ساقي فنهضت في صعوبة، وأنا أشعر بأن شاحنة مرت من فوقي، وهشمت كل عظمة من عظامي.

أواجهها فأرى ملامحها عن قرب..

لم أر من قبل شيئًا في بشاعتها، جثة متعفنة، تمرح الديدان تحت بشرتها المتآكلة التي تظهر أجزاء كبيرة من هيكلها العظمي، مع رائحتها الشنيعة التي جعلتني بعد نصف دقيقة أتقيأ روحي.

توقعت أن يدور حوار بيننا.. أن تهددني أو تلومني أو حتى تسبني.

ولكنها دون مقدمات، حملتني وألقت بي في سرعة إلى أعماق البئر المظلم..

الرائحة الشنيعة ..

الظلام ..

ثم الرائحة الشنيعة والظلام ..

ثم الارتطام..

هذا كل ما أذكره قبل أن أفقد الوعي .

هل كان السقوط طويلًا ؟..

هل كان الارتطام عنيفًا؟

لا أذكر حقا..

فقط، ما أذكره هو شيء واحد..

الضوء ..

الضوء الأحمر الثقيل، الذي كان يصدر من اللامكان، مع تلك الأرضية المخملية التي كان يغوص فيها جسدي ..

لو كان الضوء أزرقَ-ماذا كان يطلق عليه.. الأكليديس.. نعم هو -لو كان فعلا هذا الضوء أكلديسيًا.. لقلت أنني بكل تأكيد في جانب النجوم، حيث تمرح الوحوش والمسوخ والشياطين والغيلان.

ولكن الضوء الأحمر كان يوحي بأني في إحدى بقاع الجحيم.. ربما بعد قليل يأتي المزيد من الخطاة والعصاة والمجرمين، وتبدأ حفلة الشواء العظمى.

إنني لم أمت بعد.. لأن كل خلية وعظمة في جسدي تؤلمني.. ولا أعرف إن كان هذا خبرًا جيدًا أم سيئًا ..

إنني بقاع البئر..

الفكـرة نفسـها أصابتنـي بتوتـر شـديد، وجعلتنـي أرفـع رأسي إلى أعـلى، بحثًـا عـن مخـرج أو مهـرب مـن هـذا المـكان، ولكنـي لم أجـد إلا المزيـد والمزيـد مـن الضـوء الأحمـر..

لا مخرج إذن..

فـماذا يوجـد هنـاك، خلـف الضـوء الضبـابي الدمـوي الـذي يغلـف كل شيء؟!

لم أتعلـم بعـد مـن حماقتـي السـابقة، لـذا سـتجدونني أتقـدم إلى الأمـام.. أو ربـما هـو الخلـف.

المهم أنني أتحرك من تلك النقطة التي وجدت نفسي فيها.

الأرضية المخملية تثير في نفسي بعض التقزز...

أتقدم أكثر ..

وأكثر ..

لا شيء..

أعكـس الاتجـاه.. أنصـت جيـدًا لعـلي أجـد أي صـوت أهتـدي بـه إلى سـبب وجـودي في هـذا المـكان المريـب..

لا شيء..

مـا أشـعر بـه فقـط هـو نـوع مرتفـع مـن الذبذبـات أو الكهربـاء الإسـتاتيكية..

هناك شيء غير طبيعي في المكان..

بالطبع هناك أيها الأحمق، وهو شيء خارق للطبيعة أيضًا.

تعبت من الدوران حول نفسي والصراخ، فقررت أن أستريح قليلا قبل أن أكمل جولتي..

أغمضت عيني قليلًا .. إنني مرهق لدرجة كبيرة، ويبدو أن المسخ الموجود هنا، أو الشيطان، أو أيًا كان جنسه، من النوع الكسول..

- « شيلك ... شيلك .. شيلك»

أفتح عيني بسرعة بعد أن سمعت هذا الصوت، عيناي تتسعان بشدة، وأنا أشاهد تلك الظاهرة الغريبة أمامي..

الضوء الأحمر ينسحب من المكان كله، وكأنه مجرد دخان تسحبه آلة شفط عملاقة، قبل أن يتحول الضوء إلى ما يشبه الإعصار المتوهج، ليصير بعدها كائنًا دمويًا مريع الشكل، جعلني أنتفض بقوة..

هل شاهدتم أحد أفلام الرعب التي يتم فيها سلخ البشر.. لو شاهدتموها ستستطيعون استيعاب ما أرى ..

كائن متوسط الحجم.. لا يزيد طوله عن متر ونصف، يحمل رأس ثور بلا شعرة واحدة، له قوائم دابة، ولا جلد له..

خلاياه وعروقه وأوعيته الدموية تظهر بشكل فج ومؤذي للعين..

قرأت قصة من أدب الخيال العلمي عن شخص فقد جلده واستعاض عنه ببدلة بيوحيوية، كي تحميه من التلوث والعوامل الجوية، وتقيه من الصدمات، لأن ضربة واحدة له مع عدم وجود جلده وأنسجته المفقوده - كان من الممكن أن تسبب له صدمة عصبية قد تؤدي للوفاة ..

الفكرة جميلة ومنطقية.. وتوحي بنهاية سعيدة لو التحمت معه، ولكن من قال أن هذا المسخ الدموي، يخضع لنفس القواعد.

- « شيلك ... شيلك .. شيلك»

إنه صوت حوافره التي يجرها جرا على الأرض المخملية ..

- « شيلك ... شيلك .. شيلك»

يتقدم نحوي في بطء وثقة..

أتأمله في هلع..

أتراجع قليلا فأشم الرائحة الكريهة، فأستدير لأجد الفزاعة خلفي، تحمل طفلها الغريب، الذي يموت وتدفنه كل ليلة.

- « ماذا يحدث حقا، ولماذا لم أمت كالباقين؟ ».

قلتها في غضب واضطراب وأنا أتراجع بزاوية مائلة تتيح لي رؤية المسخين معًا، وأنا غير متوقع أن تكون هناك إجابة، ولكن أتت الإجابة من بين فكي الثور الدموي، بصوت عميق كالفحيح:

- « هذا لأنك المختار لهذه الليلة ».

إن في الإجابة شيء بذيء لا أدري كنهه، وهذا جعلني أقول :

- « نعم أدرك أنني أتغير، وأن كل التحولات التي تصيبني، تقودني إلى مصيبة، فلماذا أنا.. لماذا أنا بالذات.. ما المميز في ولا أعرفه؟».

شخير عجيب،مع فحيح وعويل، ترجمته بأنه يضحك ساخرًا من كلماتي، وما أكد لي ظنوني أنه قال:

- « أنت أحمق كبني جنسك.. لا شيء مميز بك.. أنت لا تتغير وحدك.. فكل من في القرية يتغير، استعدادًا للحضور الكبير، ولكنك لا ترى إلا نفسك.. ربما أنت لديك ميزة واحدة جعلتك أكثر شفافية.. وهي أنك تعرضت لنوع معين من اللعنات.. وتم وصمك من كائن

خبيث، كما أنك تعاملت كثيرًا مع الموتى، فصرت أكثر استقطابًا وجاذبية لكل شيء مظلم في هذا العالم».

رده كان صادما لأنه كان يئد كل أمل ولد بداخلي بأنني قادر على الهروب من المكان، ولو باستخدام قدرات خاصة كنت أظن أني أملكها، أو سأملكها في وقت لاحق، تبا لكل روايات الرعب التي قرأتها.

ومع عودتي للمربع صفر، ووجودي بمكان غامض أجهل عنه كل شيء، ووسط مسخين يستعدان للفتك بي قررت الاستسلام، عندما دوت في عقلي أول جمل ذلك المسخ الذي لديه مساحة كبيرة على عكس معظم المسوخ للأخذ والرد فقلت:

- « لماذا قلت أنني المختار لهذه الليلة.. لماذا الليلة بالتحديد؟».

الصوت العميق الكريه يجيب في أريحية عجيبة ستجعلني لو نجوت من هذا الفخ المحكم أغير فكرتي عن كل المسوخ :

- « خادمتي الحمقاء لا تستطيع التحكم في غريزتها أو طيورها، وقتلت جميع من وقعوا في فخها هذه الليلة، كما أننا إلتهمنا الضحية الأولى؛ فحاجتنا للحم البشري ملحة».

نظرت له بكراهية وقلت:

- « ولماذا لا تلتهمون إلا الأطفال.. لماذا لا تلتهمون ضحاياكم من الكبار..أم أنكم لا تملكون قلوبا لتشعر بالشفقة».

الشخير والفحيح والعويل من جديد، إنه يسخر مني مجددًا، ولكني لم أعد ألتفت إلا لكلماته، فمتى سيقابلني مسخ ثرثار مثله:

- « أولا نحن لا نمتلك قلوبًا بالفعل.. ليست كل الكائنات الحية بحاجة لقلوب.. كما أننا لا نتناول الأطفال.. فقط خادمتي لديها القدرة على تركيز المادة وتقليصها، وهذا يجعلها أسهل في التناول.. ربما شكلها العجيب الذي تتقمصه هو الذي لا يجعلها توحي بقدرات خاصة».

نظرت له في ذهول وقلت:

- « لديها القدرة على تركيز المادة وتقليصها.. أمعنى هذا أن كل الأطفال الذين تم التهامهم ودفنهم، كانوا رجالا وقلصتهم خادمتك.. أي جنون هذا .. أي جنون «.

لم يرد علي هذه المرة، فتأملت خلايا وجهه الدموية الرهيبة، وأنا أفكر في عمق، قبل أن تضيء الفكرة في رأسي فحولتها لكلمات وقلت متسائلًا:

- « هل أنت سجين هنا؟».

وهنا ساد الصمت أكثر، قبل أن يقول:

- « أخيرًا بشري يتمتع ببعض الذكاء.. أنا لست سجينا هنا ولكني محتجز.. ساحرتكم الحمقاء عبثت بما لم يكن لها أن تعبث به، فجلبت الجحيم لبلدتكم.. كانت تريد أن تستعيد من رحلوا من قبضة الموت.. ففتحت ثغرة مظلمة مضطربة بين العوالم.. أجتذبت العشرات من مخلوقاتها إلى عالمكم، وكنت أحدهم وأبحث عن طريق للعودة، ولا يمكن أن أمر من الثغرة إلى عالمكم ثم إلى عالمي، إلا بنجاحي في الاستحواذ على جسد بشري.. على جسدك».

قالها وبدأت تخرج منه عشرات الممصات العجيبة التي كانت تتلوى كالأفاعي ..

نظـرت لتلـك الممصـات برعـب وأنـا أتذكـر تهـاني الغجريـة، أم الجماجـم..

تلـك اللعينـة بـدأت كل شيء.. كانـت تريـد أن تسـتعيد مـن فقدتهـم مـن قبضـة المـوت، فتسـببت بسـحرها الأسـود في فتـح ثغـرة غـير مسـتقرة بـين العـوالم، ومنهـا أتـت نـوارة والنيـزك والمسـخ الـذي قـام بوصمـي، والكائنـات التـي بـلا رؤوس، ونشـطت سـحر المـرآة القادمـة مـن عـصر المماليـك، ففتحـت البوابـة عـلى عـالم دمـوي رهيـب خـرج منـه المخلـوق بشـع الهيئـة القـادر عـلى الاسـتحواذ عـلى البـشر، وجعلـت أرضنـا سـاحة لمعركـة بـين كائنـات غيبيـة رهيبـة، وعـلى أثرهـا ظهـر الدرويـش وهرتـه، ثـم الفزاعـة وسـيدها الـذي فقـد جلـده.

تلـك اللعينـة حولـت قريتنـا، إلى بـؤرة جحيميـة لا تنقطـع عنهـا الكـوارث والمصائـب والمسـوخ ..

صحيـح أنهـا لقـت مصيرهـا الـذي تسـتحقه، ولكـن لعنتهـا مـا زالـت قائمـة.

والآن علي أن أنال نصيبي منها ..

نظـرت للممصـات بيـأس، وقـررت أن أرضي فضـولي بسـؤال أخـير، فالمـوت مصـيري عـلى كل حـال، وبالطبـع سـأنتهي دون مراسـم عـزاء أو غسـل أو دفـن لائـق، في معـدة هـذا الكائـن البشـع، عـلى فقـط أن أجيـب عـلى السـؤال الأخـير الـذي يضنـي عقـلي:

- «كيـف تدعـي أنـك عاجـز عـن العبـور، وممصاتـك كانـت تتسـلل إلى عالمنـا لتلتهـم ضحايـا خادمتـك التـي قامـت بتقليصهـم».

الصوت العميق يجيب:

- « الأمـر ليس بهـذه البسـاطة التـي تتحـدث بهـا، إن مـدي لجزء مـن جسـدي خـارج الثغـرة كان مجـرد نـوع مـن الاختبـارات لقـدراتي، ولم يكـن دون ألم أو خسـائر..

في محاولتـي الأولى احترقـت حراشـيفي الخارجيـة.. ومـع كل محاولـة كنـت أفقـد جـزء مـن قـوتي وقـدراتي.. تعلمـت مـن التهـام جثثكـم لغتكـم.. وعرفـت مقـدار قدراتكـم.. خادمتـي كانـت سـتقتلك لأن الغـذاء شيء حيـوي لمـن هـم مثلنـا، ولكنـك كنـت أسرع أهـل البلـدة في التحـور.

جسـدك امتلـك قـدرة خاصـة عـلى التكيـف بعـد وصمـك.. هـذا مـا أحسـت بـه بقدراتهـا الفريـدة.. وهـذا مـا جعلهـا تجذبـك بقدراتهـا إلى حيـث تتواجـد، لتلقـي بـك في البئـر.

عبـورك إلى هـذه الثغـرة يعنـي أن ظنونهـا في محلها.. وأن وقـت احتجازي قـد انتهـى.. وكـما أخبرتـك أنـه لا شيء مميـز بـك إلا سرعـة التحـول، وإلا كان الأمـر كلـه مسـألة وقـت، قبـل أن أعثـر عـلى الوسـيط المثـالي».

كانـت إجابـة هـذا المسـخ الثرثـار أكثـر مـن كافيـة.. لذلـك وقفـت أمامـه، ولسـبب مـا لم أغمـض عينـي هـذه المـرة، وتهيـأت لاخـتراق ممصاتـه لجسـدي، وقلـت في يـأس:

- « لتجعل الأمر سريعًا، وغير مؤلم ».

أطلق فحيحًا رهيبًا.

وتألـق المـكان بضـوء أحمـر سـاطع ..ثـم سـمعت فرقعـة عنيفـة أجبرتنـي عـلى فتـح عينـي.. وعندمـا نظـرت، كان المسـخ الدمـوي، وخادمتـه شـنيعة الرائحـة ينظـران باتجـاه الفرقعـة العنيفـة.

وعندما دققت النظر لمحت المسخ الآخر الذي كان يقترب منا في سرعة.. كإعصار هادر..

لم أفهم ماذا يحدث، فقط تأكدت أن موعد موتي قد تأجل قليلًا ..

ومن تحفز المسخ الدموي الذي بلا جلد والفزاعة.. أيقنت أنه خطر حقيقي، ربما علينا جميعا، و..

- « أحط ذراعك الأيسر بقميصك.. حتى لا يفتك بك السم الذي يجري في كياني».

سمعتها تدوي في رأسي.. سمعتها بصوت نوارة.. وبدون تفكير خلعت قميصي الممزق ولفتته حول ذراعي.. وعقلي يترجم سبب طلبها الغريب.. إن نوارة خرجت من عزلتها لتنقذني، لست وحدي من يتبدل ويتغير، لابد وأن جسدها المنهك من البكتيريا الفضائية قد تحور هو الأخر.. لذلك كانت قادرة على عبور الثغرة من أجلي.. إنها ليست حمقاء فقط.. بل هي تعشقني أيضًا.

ووسط الضوء الأحمر الثقيل، رأيت وجهها، فشهقت من الرعب.

وما حدث بعدها كان رهيبًا..

* * *

هذه الأسرار الأبدية:
لا ينبغي أن تنكشف لأذنين من لحم ودم
ثمة أسرار لا تدركها إلا الروح!

«أفكار جنونية في دفتر هاملت»
نجيب سرور

نـــــوارة

(1)

عندما وقع بصري على نوارة، التي رأيتها من بعيد على هيئة مسخ مخيف أصابني ذعر حقيقي.. وشهقت بقوة من هول المفاجأة، فمهما كان تخيلي لمقدار التحولات التي أصابتها بسبب بكتيريا النيزك.. فلم أتصور أن يكون بمثل هذه الشناعة..

كانت قد تشوهت بشكل لا يمكن وصفه..

جسدها قد انتفخ بشكل منفر، وامتلأ بالقروح والصديد، فتضاعف حجمه، ووجهها انتفخ هو الآخر وصار أكثر سوادًا من جثة غمرت في الماء لفترة طويلة،

ذكرتني في هيئتها هذه بمرضى داء الاستسقاء المخاطي، والذين يتجمع تحت جلودهم الماء بشكل مرضي، فيشوه منظرهم ويحيل حياتهم إلى جحيم..

نوارة كانت في أسوأ حالاتها..

وبرغم هذا هبت لإنقاذي، الرابطة الشعورية والعقلية التي نمت بيننا، كانت هي حبل النجاة، وما تكنه لي من مشاعر، جعلها تجازف بنفسها من أجلي، والحقيقة أني غير متأكد بأنه لو انعكست الأية وسط

كل هـذا الجنـون الدائـر، بأنني كنـت سـأمتلك نصـف شـجاعتها وتهورهـا وتضحيتهـا.

لم يكـن هذاوقـت مناقشـة هـذا السـيناريو الـذي يوضـح مـدى حبـي لهـا، خاصـة عندمـا هاجمهـا المسـخ الدمـوي، واحاطهـا بممصاتـه..

في تلـك اللحظـة عـاودني اليـأس مـع ذعـر رهيـب؛ لأن نـوارة التـي تمثـل آخـر أمـل لي سـقطت في قبضـة المسـخ..

كانـت تتلـوى مـن الألم الشـنيع، خاصـة مـع تلـك الـشرارات الكهربيـة التـي أخـذت تبثهـا الممصـات وصعـق بهـا جسـدها، ولمحـت مـن مـكاني تلـك البثـور المائيـة التـي تغطـي جسـدها تتفجـر.

قلبي يخفق بعنف، وأنا أتابع تلك المعركة الرهيبة..

نـوارة تتلـوى بـين ممصـات المسـخ في عصبيـة، تحـاول الافـلات مـن قبضتهـا المحكمـة، وفي نفـس الوقـت تحـاول بيدهـا الوصـول إلى عنقـه، ولكـن الممصـات تحملهـا لأعـلى ثـم تضربهـا في الأرض بقـوة، وهـي تصعقهـا بشـكل مـزق قلبـي.

ضربـة مثـل هـذه لـو أصابتنـي، لهشـمت كل عظامـي وتركتنـي جثـة هامـدة، وصاعقـة مثـل التـي ضربتهـا، سـتحولني لكونـة مـن الفحـم، ولكـن كان مـن الواضـح أني أجهـل عـن نـوارة كل شيء، فلـم تكـن بالضعيفـة أو الهينـة برغـم حالتهـا المتدهـورة، كـما أنهـا لم تكـن فريسـة سـهلة.

والدليـل عـلى ذلـك أنهـا بـادرت بالهجـوم، وبيديهـا المنتفختـان، مزقـت العديـد مـن ممصـات هـذا الكائـن الدمـوي الرهيـب، وأثـارت جنونـه..

ولكنـه في النهايـة اسـتطاع أن يحيطهـا بممصاتـه كالشرنقـة، ويضربهـا بصواعقـه الكهربيـة دون هـوادة، حتـى بـدأت حركاتهـا تقـل.. وقوتهـا

تخور.. إلى أن خمدت تمامًا.. لقد انتصر المسخ عليها في النهاية، وحان دوري..

أردد الشهادتين للمرة المائة..

أنظر إلى الجسدين الملتحمين، وإلى الممصات التي كانت تنبض، وهي تمتص الحياة من جسد نوارة.

دموعي تهطل من الحزن والهلع.

أنظر إلى أعلى متلمسًا نجدة من السماء..

ثم دوى الخوار الرهيب..

نظرت للمسخ فوجدته جسده يتوتر، وممصاته ترتعش، ويطلق خوارًا رهيبًا.

هناك شيء يحدث!!

هل استجابت السماء لدعائي!!

الكائن الدموي ينتفض، وممصاته تتراجع وتتلوى كثعابين محتضره، وخواره المتألم لا ينقطع، قبل أن تنتفخ خلاياه بسرعة رهيبة، وينفجر جسده ليغرق المكان..

عقلي يبحث عن تفسير، فترسله لي نوارة عقليًا.. فعندما أحاط ذلك المخلوق جسد نوارة بشرنقة الممصات، تسللت إلى جسده الذي فقد حراشيفه، البكتيريا الفضائية القاتلة، وتسببت في تدميره..

السم الذي يجري في عروق نوارة لو كان لها عروقًا هو الذي أنقذها، وأنقذني من مصير مروع.

أمامي وقفت نوارة متحفزة، وهي في حالة يرثى لها، وكل شياطين

الكون تمرح في عينيها، وعندما همت بمهاجمة الفزاعة التي تخلت عن هيئتها التي تتقمصها، وصارت كتلة من الخيوط البشعة التي تشبه أعشاب المستنقعات..

تراجعت الفزاعة بهيئتها الجديدة، وأرسلت رسالة عقلية لها مفادها: أنها لا تمثل أي خطر علينا.

فنقلت لي رسالتها.. فلم أشعر باطمئنان حقيقي.

وبالفعل صدقتها نوارة ..

واقتربت مني وهي تحجب عني أفكارها، وتحجب عنها أفكاري، بعد أن أجبرتها حماقتي على الظهور أمامي بهذا المظهر البشع.. هي أنثى رغم كل شيء حتى ولو كانت آتية من عالم آخر.. ولا تحب أن تظهر بهيئة منفرة أمام حبيبها.

قبضت نوارة على ذراعي الذي لففت حوله القميص بعناية، قبل أن ترسل لي فكرة مقبضة، أنها غير واثقة من محاولتها، ولكنها ستحاول إخراجي على أي حال من هذا المكان الرهيب، لأن اضطراب الثغرة بلغ حدًا خطيرًا.. ولا تعرف إن كانت خلاياها وخلاياي ستتحمل العبور، وسط عاصفة الاضطرابات الكونية الدائرة.

رددت عليها عقليًا، أنني متقبل أي شيء للخروج من هذا المكان البشع، ولو جثة هامدة ..

استقبلت الفكرة ..

وعندما همت بإخراجنا هاجمتنا تلك الفزاعة الغادرة، وشعرت بأهدابها الحادة تمس ذراعي الحر، ولم أعرف بعدها ما حدث..

فقط سمعت الفرقعة الرهيبة ..

وشعرت بأن هناك من زرع متفجرات شديدة القوة في كل خلية من جسدي..

وشعرت بجسدي يتمزق ..

بل يتفتت..

ثم اختطفتني الغيبوبة ..

وهناك ..

عدت لأول لقاء جمعني بنوارة ..

وتداعت إلى عقلي الذكريات التي جذبتها لي أو جذبتني لها.. لا فارق.. فقط كان عقلي يهرب إلى البداية، تهيبا من مواجهة النهاية.

كان هذا في صباي، تلك الفترة التي تسبق البلوغ مباشرة، وكنت منذ وعيت على الدنيا طفل شقي وعنيد..

والطفل العنيد المشاغب، هو أكثر طفل يعامل بقسوة وإهمال في محيط أسرته، خاصة لو كان هناك من الأطفال ما يكفي كي تتوقف عن إحصائهم.

فمع الوقت تتحول الفرحة بالطفل الجديد إلى هم مقيم، عندما يكتشف الأهل فجأة أن هذا الطفل لديه متطلبات كثيرة - وهم قد أنجبوا من الأفواه الجائعة ما تعجز اليد عن إطعامها - وهذه المتطلبات تحتاج إلى نقود، والدخل المتوفر ثابت وغير قابل للزيادة بأي حال من الأحوال، بل يتناقص مع خطط الحكومة،وجشع التجار، وغلاء الأسعار، والضرائب التي تمتص دماء الجميع.

لذلك كان الجميع يعاملونني بحدة، والكل ينظرون نحوي كالنبت الشيطاني، الذي لا يتحمل المسئولية ولا يأبه لشيء إلا تتبع القصص القديمة، والملاحم التي تُعزف على الربابة في المقهى الوحيد بالبلدة كأدهم الشرقاوي، الزير سالم، العبد والشيطان، وتغريبة بني هلال وغيرها.

كان أبي يتوقع أن أساعده في مهنته، وأن أكون سندًا له، ولكنني منذ الصغر كنت طفلا عنيدًا مشاغبًا، يرفض الأمر الواقع. لذا كان شقيقي عبد الهادي هو سند أبي، وهو من توكل عليه في مساعدته، وكان الجميع يعاملونه بنفس درجة احترام أبي، لأنه كان الشقيق الأكبر ، وبالفعل كان نسخة متطابقة من أبي في كل شيء حتى قناعاته.

في هذا الوقت كانت أسرتي تتكون من سبعة أفراد، الجدة العجوز وهي أم والدي التي لا تدري عن العالم شيئًا، وأبي وأمي ، وأنا وعبد الهادي، وخلود، وانتصار .

أسرة مصرية عادية جدًا لا يميزها شيء عن غيرها، ولكن الشيء غير العادي والذي أصبحتم تعرفونه جيدًا هو مهنة أبي، وموقع منزلنا.

ولأن أبي كان يعمل حانوتي القرية كما علمتم، كان هذا سبب كافٍ لينفر منا الجميع، ونعامل من الكل معاملة جافة،

وكنت أعاني لكل هذه الأسباب، حتى أنني في إحدى المرات عندما كنت أمارس هوايتي بسرقة الفاكهة من سوق القرية، وعندما ظفرت ببرتقالة ناضجة من أحد البائعين، وبعد هروبي مصحوبا باللعنات، سمعت إحدى البائعات ، تخبر إحدى النساء المنهمكات في متابعة المطاردة بيني وبين بائع البرتقال، تقول :

- «إنه ابن غراب البين أبو هاني».

وهل ينجب الغراب إلا غرابًا آخر..

أنا غراب ..

نذير الشؤم والنحس.. والفقر.

لم تكن مهنة أبي مربحة جدًا، ولولا صندوق النذور الموجود بمقام الشيخ أبو المكارم المقام بجوار المسجد الموجود وسط المقابر، لربما تضورنا جوعًا.

إنها المهنة الوحيدة التي تقدم خدمة ما بعد الموت، فـ (أبو هاني) وهو لقب أبي الذي توارثته العائلة عبر أجيال، وأبي اسمه صالح ولا أحد يعرف هذا الاسم الآن، ولا يعمل أبي حانوتي ومغسل فقط، بل مورد للأكفان أيضًا، إنه يعتصر كل فروع هذه المهنة بحثا عن الرزق.

منذ طفولتي، وأنا بعيد جدًا عن هذا العالم، لا أعرف المنزل إلا للنوم في آخر النهار ، الساقية مكاني المفضل بالقرب من الجميزة الكبيرة، التي لا تتوقف عن منح الثمار لعابري السبيل، والتي يأتي إليها أحد الفلاحين في موعد دوري لجمع ثمارها وبيعها، والتي أصبحت بحكم العادة جميزته، فأصبحنا نطلق عليها جميزة عبد المقصود.

فقط كنت أعاني من الكوابيس، والتي تدور طوال الوقت حول الأموات، وكلما مات شخص كنت أحلم به وهو يحدثني، أو يطاردني، أو يصرخ في وجهي لاعنا أو طالبا للنجدة.

جحيم لا يطاق من الكوابيس ولا تفسير له، سوى أن أطفال القرية قد زرعوا جزءًا من مخاوفهم بأعماقي.

لي صديـق مقـرب واحـد وهـو خليـل ابـن خـادم المسـجد، والـذي يقتسـم مـع أبي محتويـات صنـدوق النـذور الخـاص بمسـجد المقابـر .

ومـع خليـل كـبرت وترعـرت، وذهبـت لكُتـاب القريـة، وتعلمـت القـراءة، ولكنني لم أتعلـم الكتابـة بشـكل جيـد، ربـما لأن مخي ثخين كـما أخـبرني الشـيخ آلاف المـرات، وهـو يمـد الفلقـة الشـهيرة ، ليمـدني عـلى قدمـي حتـى تتورمـان.

كانـت طريقـة فاشـلة للتعليـم، وأعتقـد أنـه لـو كان مخـي في قدمـي، لأنصـت أكثـر ولعلمتـه الآلام الـدرس، ولأتقنـت الكتابـة كـما أُتقـن القـراءة، وربـما كان عـلى شـيخنا الجليـل تعليـق الفلقـة في رقبتـي، وجلـد هـذا المـخ العنيـد.

ظللت على حالتي هذه، حتى قابلت نوارة .

كنـت حينهـا في الرابعـة عشر مـن العمـر ، أعمـل عـلى جمـع دودة القطـن في الزمـام الشرقـي لقريتنـا، مقابـل مبلـغ هزيـل زهيـد لا يكفـي لأي شيء، ولكنـه كان ثـروة بالنسـبة لمانحـه البخيـل.

وكنـت مجـبرًا عـلى العمل،فلـن أبلـغ هـذا العمـر دون أن أعمـل مهـما كنـت رافضًـا لواقعـي.

فلـن يقـف العمـل عـلى حـدود مهنـة أبي، فانتصـار نقـوم بالتجهيـز لهـا مـن أجـل الـزواج، وكان عـلي أن أثبـت أن لهـا أخـاً آخـر مـازال يحتفـظ في النهايـة ببعـض جينـات الرجولـة.

الشـمس قائظـة، والخـولي عبـد المؤمـن يتابـع الجميـع بعيـن صقـر، ذلـك اللـص الـذي يسـتولي عـلى معظـم أجورنـا، ومـن منـا يجـرؤ أن يعـترض، يكـون مصيـره علقـة محترمـة قبـل الطـرد مـن الزمـام .

الحرارة كانت شديدة، والعرق يتفصد عن الوجوه ورائحة الأجساد المرهقة لا تطاق..

ومع غروب الشمس انتهى اليوم.

كنت مرهقاً لدرجة مخيفة، فقررت أن أستريح قليلا أسفل شجرة التوت الموجودة على ناصية الحقل الذي أعمل به، قبل أن أشرع في رحلة العودة إلى منزلي، ومع النسيم الرقراق تسرب وعيي من جسدي، ونمت بعمق شديد، وكأنني لم أنم منذ بدء الخليقة.

ربما أهل الكهف الذين يتحدث عنهم الشيخ في خطبة الجمعة لم يناموا نومتي هذه، وعندما استيقظت كان نقيق الضفادع، وصوت صرصار الحقل، هما الشيئان الوحيدان اللذان يقطعان صمت المكان .

القمر في السماء بدر مكتمل، وعيدان القطن على مدى البصر تبدو كجنود سوداء مصفوفة، تنتظر أمرًا ما بالتحرك .

الجو مخيف، خاصة وأن وجودي وحدي وسط هذا السكون الموتر للأعصاب، مع مخزون عقلي من حكايات النداهة، وأمنا الغولة، وحارس الحقول، جعل رجفة مفاجئة تغتال روحي.

القمر بدر ويضيء المكان، وتلك الفتاة القادمة من وسط الحقول تسير الهوينى، تجعل كل عضلات جسدي تتحفز للفرار .

هل سأسمع الآن صوتها العذب ينادي اسمي :

- « يززززززززززززززززيد» .

اللعنة على الخيال الجامح، وعلى راوي الربابة.

هل ستكون النداهة المخيفة، بهذه البنية الضئيلة الشفافة؟

هل سيكون لها هذا الوجه الملائكي الشاحب النحيل؟

وهـل سـيكون لهـا ضفيرتـين تتلويـان كـما الثعابـين لتقبضـان عـلى جسـدي قبـل أن تعتـصر منـه الحيـاة؟

اقتربـت الفتـاة، وكأنهـا طـوت الأرض والزمـن في لحظـة واحـدة، مما جعـل بـدني يقشـعر، وغـزا قلبـي قلـق مبهـم.

الفتـاة التـي تسـير وحدهـا وسـط الحقـول والظـلام بهـذا الهـدوء، إمـا أنهـا بسـم الله الرحمـن الرحيـم ، أو أنهـا مخبولـة .

ابتسمت ابتسامة مخيفة.. لم أتفاعل معها لأنني ..

لأنني..

لأنـني لمحـت ذلـك الـشيء المفـزع الـذي يتبعهـا، قبـل أن يبتلعـه الظـلام، فانقبـض قلبـي وانتصـب شـعر جسـدي ، وتجمـدت مـكاني كالمخـدر .

بـل لقـد تخـدرت بالفعـل عندمـا اخـترق هـذا الكيـان المخيـف الأرض.. وشـعرت مـع لمسـته برعـدة مخيفـة ..

وتجمد وعيي وإحساسي.

ورحت في سبات عميق.

* * *

(2)

عـدت لغرفتـي خائـر القـوى، لا أذكـر أي شيء تـلا ذلـك الموقـف المـروع، هنـاك ألم شـديد في صـدري، ولكـن جفنـاي ثقيـلان، هـل سـأنام الآن، وعيـي يغيـب ولكنـه ليـس كالنـوم..

إنـه ينسـحب فأشـعر بصفـاء ذهنـي رهيـب، وأشـاهد مـن حـولي كل الموجـودات بشـكل أفضـل ممـا اعتدتـه، بـل وأرى جسـدي مسـجى هنـاك عـلى الفـراش، قميـصي مفتـوح، وعـلى صـدري علامـة داميـة لم أسـتطع تحديـد النقـش المتشـابك الـذي تمثلـه.

فهل تم طعني، وأنا الآن أُحتضر؟

أم أنـا ميـت، وهـذا الصفـاء الـذي أشـعر بـه، هـو مـا يحـدث لي أثنـاء انتقـالي للعـالم الآخـر؟

أنظـر أمامـي فأراهـا، نفـس الفتـاة الغريبـة، تقـف عـلى الكـرسي، لا، هـي لا تقـف عليـه بـل تخترقـه مـن منتصـف، وتقـف عـبره، وكأنهـا تتخلـل ذراتـه الخشبية.

اجتاحنـي ذلـك الشـعور المقلـق، الشـعور الموتـر للأعصـاب، الـذي جعـل الشـعيرات تتوتـر في مؤخـرة عنقـي وأنـا أرمقهـا بريبـة.

لقد مت بالفعل، وهذه أول روح أقابلها.

نهضت من مكاني جالسًا، شعرت بقسوة الفراش، والهواء المكتوم من حولي نتيجة غلق النافذة..

رمقتها في خوف شديد فابتسمت، فقلت لها في تردد:

- « من أنتِ .. بل ما أنتِ؟ ».

تلاشت ابتسامتها وقالت:

- « سؤالك الأول صحيح.. فأنا كائن حي مثلك ».

لا أعرف كيف تغلبت على خوفي، وعدت لأسألها في توتر:

- «هل نحن أحياء.. وكيف يمكن أن تكوني كائنًا حيًا بهذا الجسد الشفاف؟. لا يوجد كائن حي بلا جسد.. والأشباح ليست كائنات حية على حد علمي».

ابتسمت مجددًا وقالت:

- « وهل تعرف كل كائنات الكون الحية.. ليتسع أُفقك لتتقبلني كما أنا؟، أنا لست بشرًا، ولست شبحًا، أنا نوع آخر من الحياة ستفهمه مع الوقت، أنا مخلوق حي من عالم آخر».

نظرت لها في غير فهم، فقالت:

- « دعك من كل هذه الحيرة الآن، ستفهم كل شيء مع الوقت، لتعلم فقط أن هناك شيء فيك قد جذبني إليك.. شيء لا أدري تفسيره ولكنه حقيقي.. لقد أصبحنا مرتبطين لسبب أكبر مني ومنك».

مددت يدي لصدري الذي يؤلمني وقلت:

- « وهل من ينجذب لشخص ما، يتسبب له في ألم مماثل؟ ».

نظرت لوهلة إلى حيث تقبع يدي، فوق تلك العلامة الدامية، وقالت:

- « لست أنا من تسبب لك في هذه العلامة القبيحة».

رمقتها في غير فهم، وقلت بصوت يشوبه الغضب:

- « لم تكن هناك أي علامات في جسدي قبل أن أقابلك. هذا دون شك أو تفكير، تم عن طريقك».

هزت رأسها ببطء وقالت:

- « ولكني غير قادرة على فعل شيء مماثل، ثم ... لا أعرف إن كان يجب علي أن أخبرك أم لا».

قلت بسرعة:

- « لا يوجد (لا) هنا، عليك أن تخبريني بكل شيء وإلا أكتسبتي عداوتي».

كنت أعرف بالطبع عدم جدوى تهديدي، ولكنها صمتت قليلًا ثم قالت:

- « شيء ما من هذا اليوم ما زال معي «.

رمقتها في غير فهم فقالت:

- « اليوم الذي أتيت فيه إلى هذا العالم عبر الثغرة، لم أعبر وحدي، ولكن عبر معي شيء آخر، شيء لا ينتمي لعالمي أو عالمك».

إجابتها كانت أسوأ من صمتها، لذا فإنني قلت:

- « هل تقصدين شبحًا آخر عبر بعدك من عالمك إلى عالمنا».

قالت بلهجة غاضبة لا تختلف عن غضب الأطفال:

- « ألا تنتبه لكلامي قط، لقد أخبرتك أنه ليس من عالمي، ولا عالمك، هو كائن مُخَلّق جذبته الثغرة والفضول.. فعبر خلفي.. نصف حي ونصف ميت كالزومبي في عالمكم.. لقد قضيت وقتًا كافيًا على هذه الأرض، وتعلمت الكثير،وحظيت بمعرفة هائلة- رغم معاناتي

عليهـا، وأسـتطيع أن أخـبرك الآن.. أن الزومبـي لا خطـر منـه، بينـما هـو خطـر جسـيم.. لأن مـن عبـث في تكوينـه، اسـتعمل نوعًـا قديـمًا جـدًا مـن السـحر، فصنـع منـه فـخ شـبه حـي متحـرك، يصـم كل من يختارهـم بعلامته السـوداء، ليـأتي سـيده ليحصدهـم، في وقـت تـالٍ».

كلامها جعل رأسي تدور، وأسكن الشك بأعماقي فسألتها في ضيق:

- « إن كان ليـس مـن عالمـك، فكيـف اجتمعتـما في الثغـرة، وكيـف عرفتـي عنـه كل هـذه المعلومـات، وكيـف لم يصمـك بعلامتـه».

ظهر الكدر على وجهها وهي تقول:

- « لم يملـك أحـد أن يقـرر إن كان سيكون في الثغـرة أم لا لقـد تسـبب فيهـا شـيطان بـشري- كانـت تقصـد بالطبـع تهـاني الغجريـة- وحكـم علينـا جميعـا بالبـلاء، وقـد علمـت كل هـذه المعلومـات عـن ذلـك الكيـان الـذي وصمـك، لأنـه عنـد العبـور امتـزج وعينـا، ربـما هـو يعـرف عنـي الآن كل شيء، وعـن قـدرتي عـلى قـراءة عقـول المـوتـى واسـتخلاص ذكرياتهـم وخبراتهـم».

المعلومة الأخيرة جعلت جرس إنذار يدوي في عقلي، فقلت في غضب:

- « لـو صدقـت أنـك تمتلكـين مثـل هـذه القـدرات، فسـيفسر ذلـك الكثـير جـدًا، وسـيعني لي أننـا لم نلتقـي مصادفـة، وأن لديـك هـدف مـن وجـودك هنـا والآن».

هزت رأسها إيجابا على عكس ما توقعت وقالت:

- « أنا هنا من أجلك».

ولا أعرف لماذا ساعتها شعرت ببرودة وخوف عظيمين!!

***

-الخاتمة-

لم تكن الثغرة كما تخيلت أبدًا..

كنت أعتقد أنها مجرد نفق مظلم في بدايته ضوء وآخره ضوء، هذا ما وقر بداخل عقلي من تخيل.. ولكن الأمر كان مختلفًا تمامًا..

إنها ثغرة فتحت باستخدام السحر الأسود، وليس بوسيلة تكنولوجية آمنة.

شق في نسيج الكون تم شقه عنوة، وهذا تسبب في اختلال رهيب في تلك المنطقة التي كانت تمثل بوابة غير مثالية للعبور بين الأبعاد..

عندما جذبتني نوارة، دوى في عقلي مجموعة عجيبة من الكلمات، ذكرتني بتلك الكلمات الملعونة التي رددتها تهاني الغجرية ذات يوم، لتستخدمها في التصدي للكائن الشيطاني الذي قامت باستدعائه..

لم تكن كلمات متشابهة، ولكنها تنتمي لنفس العالم..

نوارة لم تكن تستخدم العلم لتخرجني من البئر.. بل كانت تستخدم السحر هي الأخرى..

كانت صدمة عنيفة لم يخرجني منها إلا تلك المشاهد الرهيبة التي بدأ عقلي يرصدها، عندما أحتوتني الثغرة

ملايين المجرات تتحرك حولي في سرعة رهيبة، شمس تتفجر وتفقد طاقتها، مخلوقات عجيبة تدخل وتخرج بسهولة من قلب ثقب أسود.. ألات طائرة تخترق فضاء بعيد عنا بمسافة تحتاج لكل أصفار العالم لتحددها.

كواكب تشبه الجنة، وأخرى تشبه الجحيم،

أنهار من نيران تسبح بقلبها مخلوقات عجيبة الشكل، تتقاتل فيما بينها على ثمار حمراء لا أدري كنهها.

ثم خيل إلي أني أرى كوكبان يتزوجان وينجبان كوكب صغير، قبل أن يستوعب عقلي الأمر، وأدرك أنهما مخلوقان ذكيان، هيئتهم فقط الغريبة.

بعدها امتزجت كل المشاهد، وتحول الوجود من حولي لنهر من الألوان، قبل أن تعود القذائف لتضرب كل خلية في جسدي..

ليعاودني الألم..

لأصرخ ..

وأصرخ..

وانهار..

ثم يختفي الضوء ويبتلعني الظلام.

ثم يعود الضوء لتنتهي رحلتي في تلك الثغرة المضطربة الموجودة بين الأبعاد.

وليسود الهدوء كل شيء، ولأشعر بيد حانية تربت على كتفي..

فتحت عيني، فوجدت نوارة أمامي بهيئة عجيبة لم أرها عليها من قبل.

جفلت عندما تذكرت السم الذي يسري في كيانها.. فربتت على كتفي مجددًا وقالت:

- « لقد انتهى كل شيء.. لم يعد هناك مبرر للخوف من قرب نوارتك.. كل شيء أصبح على ما يرام».

كانت متجسدة أمامي كحلم جميل، وقد فقد جسدها انتفاخه، وربما تلك البكتيريا التي أودت بها إلى الاحتضار، وكادت تؤدي بها إلى الموت.

كما أن عينيها استحالت خضراء صافية، وصارت بشرتها تموج بالحيوية، فقط ما كان غريبًا عنها، هو لون بشرتها السماوي الذي جعلها تشبه جنية خارجة من البحر..

كانت غريبة..

ولكنها كانت ساحرة ..

وبدون تفكير سألتها:

- « أهذه هي هيئتك الحقيقية؟!».

اتسعت ابتسامته لتحتوي الكون كله وقالت:

- « نعم.. هل أعجبتك؟!»

رمقتها بهيام وقلت:

- « بل سحرتني».

ارتسمت كل سعادة الكون على وجهها، فقلت:

- « لقد شفيت من إصابتك».

لاحظت نوع من الاضطراب على وجهها الرائق الجميل، وهي تقول:

- « المكان هنا يختلف، إن لشمسه خصائص علاجية عظيمة على من هم مثلي».

رددت بغير وعي:

- « ما معنى أن المكان هنا يختلف، أين نحن؟!».

ثم نظرت حولي بدهشة عظمى، وأنا أجبر جسدي على النهوض، فالمنطقة التي وجدت نفسي فيها غريبة جدًا عني في كل شيء..

لم يكن هناك أي أثر للبئر، أو للفزاعة، وسيدها الذي فقد جلده.

بل أرض خرسانية تمتد بين مباني عالية لا يقل أحدها عن خمسة طوابق، تتخللها أعمدة ذات ضوء كابي، بعضها عليه ألواح شمسية نابضة.

تأملت كل شيء بذهول، وأنا أردد:

- « أين ألقيتي بي يانوارة.. إن هذه ليست قريتي ».

أما الأغرب فكان ردها على جملتي الأخيرة، فقد قالت:

- « لقد وافقتَ من البداية أن أنقلك خارج المكان مهما كان الثمن، فهل تتذكر».

نظرت لها في ريبة، وهززت رأسي فأضافت:

- « ولقد أخبرتك أني غير واثقة من قدرتي على إخراجنا من هذا المكان».

أشحت بيدي في نفاذ صبر، وأنا أتأمل ملامحها الساحرة التي جعلت قلبي يخفق مجددًا، وتهت للحظة في ملامحها الفيروزية، التي جعلتني أتعجب من لون نساء الأرض بعد أن رأيت بشرتها الزاهية وقلت :

- « لماذا أصبحتِ ثرثارة فجأة يا نوارة، أخبريني عن أي كارثة فعلت، وعن أي بقعة من الأرض نقلتني إليها.. لقد استخدمتي السحر يا نوارة.. استخدمتي السحر».

ظهر التردد على وجه نوارة، ثم ألقت مفاجأتها:

- « لم تكن هناك وسيلة أخرى للنجاة، الثغرة كانت على وشك الانهيار، ولو أغلقت ونحن بداخل ذلك الجُب لتمزقنا أشلاءًا بداخلها، لم يكن هناك وقت لتسلق البئر عائدين، ولا أعتقد أن خلايانا كانت ستتحمل رحلة عكسية كلتي أجبرنا عليها.. وعليك أن تعلم أنني فعلت ما بوسعي لإنقاذك وكنت على استعداد تام للموت من أجلك».

لم أنتظر لتكمل وقاطعتها قائلًا:

- « أخبريني باختصار أين نحن يا نوارة؟».

عاودها الاضطراب وهي تقول:

- «نحن في نفس البقعة من الكوكب، ولكن...».

نظرت حولي مندهشًا، وفكرة السفر عبر الزمن تعبث في عقلي، وأنا أشاهد المباني العالية، والمصابيح الغريبة فأكملت:

- « ولكن في بعد موازي.. أنت لست في عالمك».

صرخت في دهشة:

- «هل نقلتِني لعالمك؟».

وكان ردها صاعقًا:

- « لسنا في عالمك أو عالمي، نحن في عالم غريب عنا كليًا، لقد تسبب اضطراب الثغرة في هذا».

كان الأمر أكبر من تفكيري، ومن قدرتي على الاستيعاب، فجثوت على ركبتي وأنا أنظر حولي في ذهول..

لقد صرت لاجئًا أنا الآخر..

وأصبحتُ منفيًا كنوارة، من عالمي..

إن هذا شيء لا يمكن تصديقه، ولا يمكن أن يحدث لي..

إذن فهذا سر تعافي نوارة، وسر إشراقها..

أما عن المفاجأة الأكبر..

فإنني لم أنتقل هذه المرة لعالمك عزيزي القاريء، بل لعالم مختلف تماما..

ولكن لهذا قصة أخرى ..

تمت بحمد الله